محمد الحوادي

رحلات في بلاد العرب

سوريا والعراق واليمن والسعودية وتونس والجزائر

دار الروضة

رحلات في بلاد العرب

د. محمد الجوادي

رحلات في بلاد العــرب

السعودية، العراق، تونس، الجزائر، واليمن

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - ردمك
978-625-7895-82-8
Rehelet fi biled al-Arap

للطباعة والنشر والتوزيع

إهــداء

إلى أخي الكريم

الدكتور عبد الحميد شومان

المحتويات

هذا الكتاب ٩
الفصل الأول: العراق ١٩٨٩ ..... ١٣
الفصل الثاني: تونس ١٩٩١ ..... ٤٢
الفصل الثالث: جدة ١٩٨٩ ..... ٦٢
الفصل الرابع: لقطات سريعة من رحلة يمنية قصيرة ٢٠٠٦ ..... ٨٧
المياه المعدنية تلخص معركة الرياسة اليمنية ١٠١
الفصل الخامس: الجزائر ٢٠٠٧ ..... ١٠٥

هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب انطباعات شخصية عن رحلات قصيرة في السعودية، والعراق، وتونس، واليمن والجزائر سجلت فيها ما لفت انتباهي، أو أثار تفكيري، أو تغلب على مشاعري ووجداني، ولم يكن من حظي أن أسجل كل ما ينطبق عليه هذا الوصف، وإنما وجدتني قد سارعت إلى تسجيل بعض لقطات هنا وهناك، ووجدتني تركت كل هذه اللقطات في ملفاتي سنة وراء أخرى، ورأيتني، أخيرًا، لا أجد السبب وراء تأجيل نشرها أو إيقاف هذا النشر، ووجدتني في غربتي ومحنتي ومرضي واستيحاشي أجمع ما وجدته منها وأراجع صياغتها، وأقدمها على هذا النحو الذي يراه القارئ.

والحق أنني كنت سعيدًا في هذه الرحلات القصيرة، ومع أني رأيت ما توقعت رؤيته فإني فوجئت بكثير مما لم أكن أعرف عنه شيئًا، وفوجئت أيضًا بنظم إدارية كثيرة في التعامل مع نشاطات الحياة، ووجدت رغبة عارمة في التقدم، وإن لم تواكبها خبرة موازية بمقومات التقدم، ووجدت حاجة ملحة عند العرب لأن يستفيدوا من تجارب أشقائهم في الإنسانية، ومن تجارب أسلافهم، ومن تجارب العالم المحيط بهم.. ووجدت غير هذا.. وقد وفقني الله أن أنقل على هذا الورق بعض ما أحسست به من مشاعر، وبعض ما أدركته من حقائق.

□

ولست أجادل الذين يقولون إننا لا نعرف أوطاننا العربية على نحو ما ينبغي أن نعرفها، والواقع أن هناك كثيرًا من العوامل التي تحول بيننا وبين هذه المعرفة، بيد أني أحب أن أركز في البداية والنهاية على أن الفريضة الغائبة الأولى هي طرق النقل الداخلية (برية وحديدية) التي لا تزال أقل بكثير من أن تحقق هدفًا تنمويًا، أو تواصلًا

إنسانيًّا، ولهذا يراني القارئ حفيًا بتصوير حالة كثير من وسائل النقل والمواصلات، ومن أنظمة النقل والمواصلات، ويراني حريصًا على أن أتمنى، وأن أكرر التمني.

وعلى الرغم من سعادتي بكثير من آثار الماضي، فإني سعيد أيضًا بإنجازات الحاضر، ولهذا يرى القارئ وصفًا لكثير من مظاهر هذه الإنجازات بعين المحب الذي يتمنى لوطنه العربي المسلم مزيدًا منها.

- زرت السعودية أول مرة في ١٩٧٨ حيث أتيح لي أن أؤدي فريضة الحج، وقد زرتها بعد ذلك مرات عديدة.
- وزرت الكويت في طريقي إلى الهند عام ١٩٨٠.
- وزرت العراق في ١٩٨٩ لحضور مؤتمر اتحاد الأطباء العرب.
- وزرت تونس في ١٩٩١ لحضور مؤتمر اتحاد الأطباء العرب، حيث كنت مشاركًا بورقتين في هذا المؤتمر، وزرتها في ١٩٩٩، وزرتها في ٢٠٠٢ لحضور احتفالات الدولة بالاستقلال.
- وزرت سوريا في ١٩٩٧ و ١٩٩٩ و ٢٠٠٩.
- وزرت اليمن في ٢٠٠٦.
- وزرت الجزائر في ٢٠٠٧.

لكني لا أزال أشعر أني مقصر إلى أبعد حدود التقصير في زياراتي لبلاد المسلمين، التي أتمنى لها فرصا أخرى، أرجو أن يمتد بي العمر لأشهدها وأسجلها.

بقيت ملحوظة هامة؛ وهي أن هذا هو الكتاب السادس لي في أدب الرحلات، وقد كان من المفروض أن يكون موضوعه هو موضوع أول كتبي، بيد أن السياسة فرقتنا وأبعدتنا، ولا تزال. فجاءت كتابتي عن ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا والهند قبل كتابتي عن السعودية والعراق واليمن والجزائر وتونس.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

□

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليَّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل و الهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليَّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول.. وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ـ بالطبع ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية.

فله سبحانه وتعالى ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الفصل الأول

العراق ١٩٨٩

(١)

أبدا الحديث عن زيارة العراق السريعة بقصة موحية..

حضرت في بداية عهد الرئيس مبارك جلسة كان أصحابها يتداولون في الطرق التي يستطيعون بها مساعدة أحد الأصدقاء الذين فقدوا عملهم بطريقة مفاجئة، فقال أحد الأدباء النشطاء إنه يعرف أن ذلك الأديب مترجم، وإنه مستعد لأن يأخذ منه الآن عملًا مترجمًا فينشره له في سوريا والعراق في الوقت ذاته، دون أن يسبب هذا أي مشكلة فيما يتعلق بحقوق الترجمة وازدواجية الأجر.

أبديت سعادتي بهذا التعاون فإذا بي أفاجأ بالنقيض وأن السر في هذا الإنجاز يعود إلى عكس ما أعتقده.. فليس مسموحًا في سوريا بدخول أي كتاب نُشر في العراق، وليس مسموحًا في العراق بدخول أي كتاب نُشر في سوريا، وهكذا يمكن للمترجم الموهوب أن ينشر الكتاب من خلال داري نشر في الدولتين، دون أن يمثل هذا أي مخالفة لأي قاعدة!

عشت أيامًا لا أصدق أن تكون هذه هي حالة الدولتين المتصلتين جغرافيًا واللتين يحكمها حزب واحد.. هو حزب البعث! والأهم من هذا أنهما تتزعمان الجبهة التي تأسست ضد الرئيس أنور السادات بل ضد مصر (بلا مبالغة)، بسبب كامب ديفيد.

(٢)

في ذلك الأسبوع ودون أن أدري، وبسبب تلك الواقعة بدأ إحساسي العميق بالمأزق

الذي كان السادات يعانيه، كما بدأ إلمامي بالشئون العربية يأخذ منحنى آخر يبتعد عن النظرية السياسية ويقترب من النظرية الإنسانية.

لا أكون كاذبًا إذا قلت إنني بدأت أدرس حالة الفكر الثوري العربي أو الفكر التقدمي العربي من منطلق لا يقف عند علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) وإنما ينطلق إلى تقليب وفحص محض من خلال علم الأمراض (الباثولوجيا).. أدركت كثيرًا من الحقائق وكونت كثيرًا من الأسئلة.

وكنت قد عرفت ما لا يتصوره الإنسان، من أن معظم ساسة العراق وسوريا السابقين يقيمون خارج بلادهم، وأن عددًا كبيرًا منهم يقيم في القاهرة، وأن بعضهم يقابلني في الصلاة دون أن أعرف أنه صاحب ذلك التاريخ، وأنهم كذلك يقابلونني في النوادي والمطاعم بل في العيادات والمستشفيات.

(٣)

بعد هذه المقدمة السريعة أنتقل إلى مقدمة أخرى أسرع منها، وهي أني كنت أتصور في طفولتي أن أول زيارة لي لخارج مصر ستكون دمشق، فقد كانت كتب المرحلة الإبتدائية المؤلفة منذ عهد الوحدة هي الكتب المقررة على أبناء جيلي، بما فيها من حديث عن الجامع الأموي وعن سوق الحميدية ومقارنته بسوق الموسكي، وعن غوطة دمشق وعن نهر بردى ونهر النيل إلى آخر كل ما هو ممكن من مفارقات ومزاوجات.

وكنت بالطبع أتصور أن زياراتي التالية بعد دمشق ستكون لبغداد.

ومن الإقرار بالواقع أن أذكر أن هاتين الزيارتين انتقلتا من الموقع الأول والثاني في تاريخ ترتيب رحلاتي إلى ما بعد العشرين.

ومن الإقرار بالواقع أيضًا أن أذكر أن زيارتي الوحيدة لبغداد سبقت زياراتي الثلاث لدمشق، ولهذا السبب وحده جاءت هذه المقدمة في هذا الفصل عن بغداد على الرغم من أنها تتحدث عن دمشق بما لا يقل عن حديثها عن بغداد.

(٤)

أعود إلى المقدمة الأولى لأستأنف منها الحديث عن أن علاقات مصر ببغداد في

ذلك الوقت كانت قد انحصرت في هذه المساحة المرتبطة باليسار العربي والمتياسرين العرب من الأدباء والفنانين، فالمدعوون إلى بغداد هم أولئك الذين سيشاركون العراق في ندواته أو مهرجاناته، وليست هناك برامج سياحية لزوار يزورون بغداد من أجل بغداد، وإنما هم يزورونها من أجل شيء تنظمه الحكومة في بغداد، ومن ثم فإن الحكومة بعلاقاتها وصداقاتها تضمن تمامًا شخصيات وتصرفات مَنْ يأتون إلى بغداد ومدى الولاء الذي يكنونه لها ولنظامها ولسياسات الرئيس الركن صدام حسين التكريتي.

وتمتد مظلة هذه الدعوات لتشمل كثيرين جدًّا، ولتكرر دعوة هؤلاء كثير جدًّا، حتى أن بعضهم كان يذهب إلى بغداد بمعدلات شهرية أو ربع سنوية على الأقل.

ولم يكن صعبًا أو بعيدًا عليّ أن أذهب في أي زيارة من هذه الزيارات إلى بغداد قلعة الخلود والمجد التليد، مستحضرًا قصيدة الشاعر الكبير على الجارم وذكريات أحمد حسن الزيات وزكي مبارك، ومستذكرًا الرصافي والزهاوي والجواهري، الذي كان من حسن حظي أن اسمه هو الذي يجاور اسمي في المكتبات الأدبية التي ترتب المؤلفين أبجديًا، وتعرض من خلال هذا الترتيب ما هو متاح عندها من الكتب.

بل كنت استحضر أيضًا الجواري، الذي هو أحمد عبد الستار الجواري، الذي كان نجم الإدارة التعليمية في العراق حين كنت صبيًا وأصبح عضوًا في مجمع اللغة العربية، فلما جاءت حقبة التأريخ للمجمع في احتفالات اليوبيل الماسي (٢٠٠٨) انقلبت الآية وأصبح اسمه يكتب خطأ بالدال ليكون كاسمي، وأنا الذي كنت أتصور في صباي أن الراء أشهر من الدال.

ومن طريف معايشتي للأخطاء المطبعية أنني كنت أود أن أكتب إن اسم هذا الرجل قد يرد في كتابي هذا من باب الخطأ بالدال تحسبًا لأن يصدر الكتاب قبل مراجعتي المطبعية، ثم قلت لنفسي: ما هذا السخف؟ دعك من هذه النرجسية المقيتة، فإذا بالتجربة المطبعية تأتي وقد كتب اسمه بالدال، وأنا الذي كنت أتمنى من أربعين عامًا لو كان اسمي بالراء.

(٥)

كنت أبتسم وأنا أرى وفود الأدباء المصريين تذهب لبغداد وتعود وكأنها في مهمة

رسمية فحسب، فلا أحد يحدثك عن شيء من بغداد ولا في بغداد، وكنت أتفهم إلى حد ما هذا الطابع (الشيوعي) أو الأسلوب الشمولي في صياغة برامج الضيوف الرسمية، وأعجب من قبول الأدباء والكتاب لهذا الاصطفاف المصطف حتى فيما يتعلق بمدينة يتذكرون عنها كل شيء إلا هذا الذي يرونه، لكني بعد أيام أقمتها في بغداد عرفت السبب.. وليتني ما عرفته.

فقد كنا نتضاحك كعادة الأطباء الذين وصلوا إلى مرحلة من الثقة التي تتيح السخرية من أنفسهم فيما يسخرون وضمن ما يسخرون، وكنا قد استلطفنا طبيبين عراقيين ليكونا معًا في سيارة كبيرة تنقلنا من مكان إلى آخر اخترناه فاستأجرناها بمعرفتنا، وأردنا اصطحاب الزميلين ليكونا دليلين ورفيقين، وحين تدحرجت النكتة لتمس الرئيس صدام من بعيد ودون أدنى قصد أو سوء نية، فوجئنا بالزميلين يوقفان السيارة، ويفتحان الأبواب، وينزلان منها دون أن يودعاننا أو يستأذنا أو يحتجا أو حتى يسباننا، عند ذلك تذكرت عبد الحليم وهو يغني الأغنية التي كتبها شاعر يستعطف محبوبته أن تقول له أي حاجة.. أي حاجة.. وهي لا تقول.

بدأنا في الاعتذار ونزلنا نعتذر ونكرر الاعتذار، حتى قبل الطبيبان العظيمان العودة إلى السيارة، ثم اكتشفنا من باب اللياقة أن الأفضل هو أن نقفل الموضوع تمامًا وألا نكرر الاعتذار.

(٦)

كنت كما أحس القارئ من هذه المقدمات، أتحين الفرصة لأزور بغداد ودمشق إلى أن جاءت الفرصة في ١٩٨٩ حين أعلن اتحاد الأطباء العرب عن إقامة مؤتمر ذلك العام في بغداد وعن رحلة متميزة للمشاركة في المؤتمر، ومن العجيب أن عددنا كان كبيرًا بأكثر مما يتصوره أي مراقب، لكن الذين عاشوا الظروف التي وصفتها يدركون الآن أن آلاف الأطباء من كل الأقطار العربية كانوا يتشوقون إلى مثل هذه الزيارة، ويتحينون فرصتها. ذلك أن أحدًا في النظام الصدامي لم يكن يعنى بالمهنيين والأطباء عنايته بالصحفيين والفنانين والمثقفين والشعراء.

كان أساتذتي الأطباء المشاركون في هذا المؤتمر من أجيال متعاقبة، لكننا كنا نعرف

بعضنا البعض، على الأقل من الصور التي تنشرها الصحف والمجلات لنا، أو من شاشات التلفزيون، وكنا كذلك نعرف انتماءاتنا وعلاقتنا وتوجهاتنا.. وهكذا لم يكن من الصعب علينا أن نؤخر ذكر اسم أكبرنا (مكانة) في بعض المواقف، لأنه معروف أنه من عائلة قريبة من السادات بالنسب والصداقة، كما أننا كنا بالسليقة السياسية نساعد الإخوان المسلمين على أن يبتعدوا عن الرسميين السوريين الذين يحضرون المؤتمر، وكان عددهم كبيرًا ومنهم من أصبح سفيرًا ووزيرًا بعد ذلك... وهكذا.

ومن حسن حظنا أن صادفتنا مناسبة سعيدة، فقد كان مجلس الاتحاد (التعاون العربي) الرباعي بين مصر والعراق والأردن واليمن قد أتم تدشينه لتوه، وكانت زيارتنا عقب تدشينه بفترة قصيرة، وهكذا كانت لنا ترحيبات حارة وإكرامات خاصة، وكنا نتوزع بين أكبر فندقين وطنيين وهما المنصور والرشيد، وإن كنت أتمنى لو كان هناك فندق يحمل اسم المأمون أيضًا.. أما السفاح المؤسس فقد كان من الصعب أن يسمى شيء باسمه في ظل وجود سفاح أكثر مجدًا.

(٧)

كان اسم أحمد حسن البكر الرئيس السابق مباشرة يعامل معاملة اسم محمد نجيب في عهد عبد الناصر، أو اسم أحمد بن بيلا في عهد هواري بومدين.

وكانت أسماء الملك فيصل والملك غازي والملك فيصل الثاني ونورى السعيد وعبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف ورشيد عالي الكيلاني تبدو وكأنها جزءًا من ماض سحيق.

كان التلفزيون الرسمي حاضرًا بقوة، وكان هو نفسه ـ أي التلفزيون الرسمي ـ الذي يدير الجلسة الافتتاحية من المؤتمر باعتبار الرئيس صدام هو الذي سيفتتح المؤتمر وهو الذي يرعاه، وإن كان قد أناب أحدًا في الافتتاح لكنه استقبلنا في إحدى الأمسيات (أو استقبل عددًا كبيرًا منا).

(٨)

كانت هذه فيما يبدو أول مناسبة علمية (لا طبية فحسب) تعود مصر إلى المشاركة

فيها في مثل هذا المؤتمر أو التجمع العلمي في بغداد بعد أن كانت مقاطعة العراق لمصر تشملها، وكانت هذه المقاطعة العصيبة لمصر عقابًا مستحقًا على محاولتها استرداد أرضها بكامب ديفيد، دون أن توافقها شقيقاتها على أسلوبها في المقاربة أو التفاوض.

ولم نكن في مصر قد هيأنا أنفسنا على هيئة وفد وتمثيل رسمي أو شكلي وما إلى ذلك، وإنما كنا تتصرف على أساس أننا أطباء (من تخصصات مختلفة ومتعددة) سنحضر مؤتمرًا طبيًا عامًا بجلساته وندواته فحسب، ولهذا فقد فوجئنا قبيل الجلسة الافتتاحية بالبروتوكول والمراسم وهم يأتون إلى حيث جلسنا تحت علم مصر (ولم نكن قد تصورنا أن هذا سيحدث بهذه الصورة) جاء الرجل ليطلب منا أن نختار من يدلي بأقواله الآن فيما يقابل برنامج صباح الخير يا أمريكا، وصباح الخير يا مصر، وهو برنامج على الهواء مباشرة، بمناسبة أن التلفزيون سيذيع حفل الافتتاح مباشرة. وتفضل أساتذتي بتكليفي بهذه المهمة، وذهبت فتحدثت ويبدو أن خبرة التلفزيونيين العراقيين جعلتهم يقررون استمرار الحديث معي لأطول مدة حتى يأتي الافتتاح مستغنيين بهذا عن أن يقدموا حوارات غير مضمونة مع ممثلي هيئات ودول أخرى.

بالطبع فإن أساتذتي جميعًا لم يشاهدوا ما قلت ولا بدايته ولا نهايته، فقد كانوا في الكراسي ينتظرون بدء الاحتفال، وكنت أذيع على الهواء مباشرة فلما عدت سألوني ماذا أخرّك طوال هذه الساعة، وماذا فعلت بعد الحوار، فقلت لهم إنني منذ تركتهم وأنا أحاور، فما كان منهم إلا أن ابتسموا للحظ الذي رحمهم من أن يقوموا بما قمت به.

وفي جولاتنا في ذلك المساء والأيام التالية وجدت العراقيين على عادتهم في حب المصريين من دون الإقرار بتفوقهم (إلا بمشقة نفسية يجاهدون أنفسهم فلا ينتصرون عليها)، يشيرون إلى ما رزقني الله به من سلامة اللغة وطلاقة اللسان وقيمة المعنى، وكان هذا ظاهرًا بشكل يتناسب مع تلفزيون يراه مائة في المائة من الشعب. وكان أساتذتي الأطباء يضحكون لي في هدوء.

(٩)

أعرف يقينا أنك تريد أن تسألني عن الشعور الغالب على الأطباء وهم يزورون بغداد في ١٩٨٩، فأقول لك إن هذا الشعور كان يغلب عليه التحفظ بلا تحفز.

كنا في واقع الأمر نشعر بالأسى لهذا الميدان الكبير الذي ملأه وشغله نصب تذكاري أو قبر كبير ندور حوله بالأتوبيس السياحي مرتين أو أربعًا كل يوم، ونستنتج أن هذا هو القبر المعد للرئيس الكبير ليخلد ذكراه، مستندين في هذا إلى معلوماتنا عن الأهرام.

وكنا نريد أن نسأل، ولكننا كنا نريد أن يكون سؤالنا بلا آثار جانبية، وهكذا احتلنا حتى وصلنا إلى صيغة بماذا تسمون هذا الميدان؟ ومن هو المهندس الذي صنع هذا العمل العظيم؟

لكننا في واقع الأمر كنا نفعل هذا كما يفعل الأساتذة في امتحان الشفوي حين يكون رأيهم قد استقر على رفض الطالب ورفض نجاحه، لكنهم مع كل سؤال وكل إجابة يمجدون الطالب بأقوال من قبيل: عظيم ـ ممتاز ـ ما شاء الله ـ تمام ـ مضبوط.

(١٠)

هكذا كنا متحفظين في سخريتنا من هذا المبنى أو الكتلة، لكننا كنا نحتفظ لأنفسنا بهذا التحفظ (بل الاشمئزاز في بعض الأحيان) ونستبدل بهذا أقوالًا من قبيل: لا بد أن هذا المبنى هو أعلى مبنى في العالم، أو لا بد أن هذه الدائرة هي أكبر دائرة.. وهكذا.

كنا نذهب لأماكن الدعوات فنرى معمارًا سوفيتيا كما نسميه، ولا نرى بغداد، وكان هذا المعمار يرى أصحابه وهم فخورون بالحداثة، وهم لا يعلمون إننا نبحث عن العراق في العراق.

فكرنا في أن نستقل بأنفسنا في دعوة إلى مطعم للسمك المسقوف فكان من خطئنا أن اختير لنا (دون خيار منا ودون عرض) مطعم حداثي أيضًا، يطل في طابقه السفلي على النهر، لكن الزجاج قائم بيننا وبين النهر، وقد أخذنا بعض الوقت لنعرف هل نحن على نهر دجلة أم على نهر الفرات، وهل نحن على هذه الضفة أم تلك؟

(١١)

قررنا فيما بيننا وبين أنفسنا وبعد مشاورات أن نترك البروتوكولات والملابس الرسمية وأن نخرج إلى الشارع وأن نعبر شارعًا بعد آخر حتى نصل إلى حي سكني

للطبقة العادية ونرى الناس، ونرى ما يبيعون وما يشترون، ووجدنا من أسئلتنا وأجوبة من سألناهم وأجابونا أن هذا الذي نفعله خارج إطار النظام المفروض، لكننا صممنا وقلنا إذا لم نكن لنتحرك مثل هذه الجولة في زيارة سياحية تعاقدنا فيها على هذه الصفة، فعلى الدنيا الفناء.

قلنا لأنفسنا: إننا نجوب المدن الأوروبية بدون لغة ولا ثقة، ونتحسس الطريق، ونتحوط للسرقة أو العنف، أفلا يجدر بنا أن نفعل مثل هذا في وطن يتكلم لغتنا ونتكلم لغته، ثم هو قبل ذلك وبعد ذلك آمن تمامًا في ظاهره وباطنه.

واستطعنا في النهاية أن نتشجع وأن نمضي إلى هذه المغامرة المحسوبة جيدًا، أخذنا التاكسي إلى منطقة تسمى بالشيراتون وقبله بمسافة تركنا السيارة عند شارع معين عرفناه من وصف من خططوا لنا وتركنا للسائق الأجر الذي يريده وترجلنا.

(١٢)

وبعد دقائق عرفنا السبب في أن مثل هذا الذي نفعله لا يجوز..

فقد وجدنا صورة حية من الجمعيات الاستهلاكية المنتمية إلى عهد عبد الناصر، التي كانت تلعب أو تؤدي دورها المرسوم بحرفية بالغة في المسرحية الناصرية، رأينا هذه الصورة بالتمام والكمال وطبق الأصل في بغداد، رأينا الدور يتكرر بحذافيره وحركاته وسكناته، على نحو ما كان يؤدى في العرض الأول للمسرحية في القاهرة الذي حضرناه قبل عشرين عامًا.

وجدنا المواطنين الذين ينتمون إلى أغنى بلد في العالم في ذلك الوقت (في موارده) وهم مزدحمون ليحصلوا على السكر التمويني بالسعر المدعوم، مع أن القصة كلها وهم في وهم، والفارق بين السعرين لا يحتمل كل هذا العبث، ولا يحتمل ضياع الشعب وهيبته وسعادته في مثل هذه الإجراءات، فلما رآنا (أو بالأحرى لما لمحنا) صاحب القرار المحلي في هذه الجمعية (أمين الاتحاد الاشتراكي على حد تعبير أساتذتنا في تلك الليلة) هرع إلينا بنفسه في ترحاب شديد ليسألنا عن طلباتنا ليوفرها لنا بسرعة بالغة وتصرف استثنائي، باعتبارنا ضيوف العراق.

وفي لمح البصر تصرف اثنان منا التصرف الذكي (كنت ثانيهما) وأخرجنا (دينارات عراقية) وطلبنا منه عبوتين من مكعبات السكر لأننا نحتاجه في الفندق، وفي لمح البصر جاءتنا العبوات.

وبقدر ما أبدى أساتذتنا الكبار الإعجاب بالحركة الذكية التي نفت عنا دوافع ثابتة تؤكد تهمة الريبة والشك، فإن أساتذة الأجيال التالية اعتبروا أن ما فعلناه من سرعة البديهة كان تزيدًا لا حاجة له، فليس من المعقول أن زوارًا من طبقتنا يحتاجون كيلو سكر مدعم.. وفي طريق العودة أخذ أكبرنا يحذرنا من أن نخطئ ونترك هذا السكر بالذات في الفندق، فيكشف عن تصرفنا وعن عبث المسرحية التي أدينا دورًا ذكيًا غير مكلف فيها، وأنقذتنا من أن تكون أصحاب أغراض سياسية أخرى خفية!!

ربما تتعجب من أن يستغرقنا التفكير في مثل هذه التفاهات، لكن الحقيقة أن الجو العام كان يتكفل بمثل هذا الاستغراق.

وكان الدكتور توفيق سويدان أستاذ الجراحة في طب عين شمس يسخر مني بطريقته المحببة ويقول: ألم يكفك الكتب التي أحضرتها لتحمل معها سكرًا أيضًا؟

وقد كنت كلما لقيته بعد هذا وسألني عن السكر المكعبات المدعوم بادرته بالقول بأني شربت الشاي في مصر بسكر العراق.

(١٣)

كانت زيارة مدن أخرى غير بغداد حلمًا لا بد أن أتمه مهما كان الثمن، حذرني أساتذتي بما فيه الكفاية من سوء الحظ، ومن سوء المصادفة، ومن سوء الفهم، وأنا لا أتراجع بل أقول إن هذه هي آخر زيارة لي إلى العراق فلماذا لا أرى الكوفة، ومراقد الأئمة، والقباب الذهبية؟!

سوف أكون سخيفًا بما فيه الكفاية لو أني استعرضت في مثل هذا الحديث انطباعاتي عن الكوفة وبغداد... إلخ. فهي انطباعات منتشرة في كل ما كُتب عن العراق، ولسنا بمعرض الحديث عما هو شائع وإنما عما هو خاص بتجربتنا.

لكني أكون أكثر سخفًا إذا لم أذكر للقارئ بعض ملامح مغامرتي المحسوبة..

اجتهدت بكل ما استطيع حتى أقنعت زميلا من أطباء القلب العراقيين أن يكون رفيقي في هذه الرحلة، واجتهدت بكل ما استطيع حتى أقنعت أحد الزملاء المصريين بأن يكون رفيقنا.

ذهبت إلى محطة تناظر محطة أحمد حلمي في القاهرة أو محطة مصر في الإسكندرية، وطلبت التاكسي التالي للتاكسي الذي عليه الدور في خط الكوفة واتفقت معه أن يصحبنا وأن يعيدنا، وعدت إلى زميليّ حيث كانا ينتظرانني في أول مطعم في واجهة الفندق، فاستقلا التاكسي معي مباشرة وانصرفنا للخروج من بغداد.

(١٤)

في الكوفة جاء وقت الصلاة فانتظرت أن تقام صلاة الجماعة، فأدرك مرافقي العراقي أني لا أعرف السر فمال عليّ أنه لا جماعة لأن الإمام غائب.

في الكوفة أيضًا وجدت ما وجدته في القيروان بعد سنوات، من أن النظم الأمنية تعالج مشكلات التسول بالترحيل إلى مثل هذه الأماكن، فالسلطات الشمولية أيًا ما كانت حريصة على ربط الفقر بالإسلام وربط التسول بالإسلام، وإيداع المتسولين رحاب المساجد بل في صحونها، وتنفير الناس من الإسلام باعتباره ملاذًا للتسول والمتسولين والفقر والفقراء.

ولا يزال هؤلاء الحكام المتغطرسون الكاهون للإسلام يواصلون هذا النهج الذي يعبر عن مكنون نفوسهم التي لم تذق طعم الإيمان ولا حلاوة الانتماء، وهكذا يتمادى هؤلاء في هذا الغي، حتى إذا أصبحت السياحة قلقة من ازدياد حجم التسول في هذه الأماكن، بدأت عندها فقط (أو بعدها) وليس قبلها في القلق من انتشار ظاهرة التسول.

أما في مصر فإن التسول فن ذو تجليات متعددة تجعلك ترى في التسول المجرد بدايات الفن المزدهر.. ليس إلا.

(١٥)

كان أكثر ما فتح عيني على حقيقة الحياة في العراق في ذلك الوقت هو حال

المرأة العراقية، فقد كنت أتوقع أن أرى السيدات العراقيات في وضع أفضل بكثير مما وجدتهن عليه.

أسارع فأقول إن المرأة العراقية لم تكن تعاني من شيء في الظاهر، بل كانت تلقى الاحترام والتبجيل، لكنني أتحدث عما هو أعمق من الاحترام والتبجيل.

وربما تقتضي رؤيتي قدرًا من التمهيد..

كانت العراق في الوقت الذي زرتها فيه خارجة من حرب، طالت بأكثر مما طالت الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من أن الزمن يميل مع مضيه إلى اختصار مدد الحرب لكن الحرب العراقية الإيرانية طالت كما نعرف حتى استمرت عقدًا من الزمان، وكنت أتوقع في ذلك الوقت أن أرى المرأة العراقية تتبوأ في العراق من المكانة ما يوازي أو يفوق ما تتبوأه المرأة الألمانية في ألمانيا والمرأة الانجليزية ... إلخ. لا أتحدث أيضًا عن المناصب، ولكني أتحدث عن المسئوليات والمهمات وعن مكانة المرأة في المجتمع وفي القرار وفي الصحافة وفي الأدب وفي المجتمع الثقافي بوجه عام.

لكني وجدت المرأة العراقية متأخرة (أو بلفظ آخر أدق: مؤخَرة) خطوتين عما تستحقه، حتى في أبسط الأمور، فهذه لجان تسيير مؤتمر اتحاد الأطباء العرب الذي نحضره تعتمد عند أي قرار بسيط على رجل غير موجود لأنه مشغول في مكان آخر، بينما هذه السيدة أو الآنسة التي هي كبيرة هؤلاء الموظفات أو السكرتيرات ليس لها من الأمر شيء، وهي كلها أمور بسيطة إلى حد مزعج من قبيل توزيع البادجات، أو الكتب الخاصة بالمؤتمر، أو حقائب المؤتمر، أو دعوات العشاء، أو كوبونات الغداء.

ولم يكن دور المرأة وحده هو الغائب، وإنما كان هناك دور غائب للسلاسة أو رتابة تسيير الأمور البسيطة، فهذه الإجراءات المتعلقة بالعمل اليومي أو المؤتمرات أمور يمكن أن تتم بدون تدخل بشري، كأن يكون الدخول بالكارت أو الكارنيه أو البادج.. لكن بقايا أو مظاهر سطوة الرجل الشرقي أو بالأحرى «المسئول الشمولي» في التحكم في الأمور والقبض على مقاليدها كانت تظهر واضحة ومزعجة.

وتفسير هذا في ظني يرجع إلى أن مثل هذه الفعاليات توقفت أثناء الحرب فلما بدأت بعد الحرب بدأت وكأنها سلطة أو كأنها أمر من أمور السيادة والإرادة.

واختلط أمر هذه الأمور البسيطة المعنية بتسيير الحياة بأمور أكبر منها في صناعة القرار، وتحديد الامتيازات، والفصل بين الطبقات، بل صناعة الطبقة نفسها.

(١٦)

على هذا النحو الذي شرحته أكون قد فتحت لك نافذة (أعتبرها مهمة) للإطلال على سير الحياة اليومية في العراق في ذلك الوقت.

فقد كانت الأمور تسير الهوينى الهوينى في كل مكان تعاملنا معه.. في المطاعم وفي المطار وفي المحلات العامة وفي الأسواق، وكأنه لم تكن هناك حرب كفيلة بالتنبيه إلى أهمية عامل السرعة وإلى أهمية عامل تفويض السلطة وإلى أهمية عامل صناعة مناخ يعتمد على المرأة، وتستطيع فيه المرأة أن تتولى إجباريا (أو اختياريًا) كثيرًا من المسئوليات الرياسية وغير الرياسية، لتحل محل الرجال المشغولين بالحرب.

كنت أقارن هذا الوضع الذي آراه بالصورة المرتسمة في ذهني عن مجتمعات أوربية كثيرة كانت كل قواها العاملة في مجال ما من النساء، حتى لا نكاد نرى رجلًا فيها، فأتعجب من أن تكون المرأة العراقية قد أبعدت (عن قصد) عن الاعتماد عليها حتى في سنوات الاحتياج إليها بسبب الحرب.

دفعني هذا المنفذ الذي نظرت منه إلى الأمور إلى التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل التنمية في العراق، وارتسمت في ذهني صورة التنمية المرتبطة بالجيش ومتقاعدي الجيش ومنتسبي الجيش فقط.. استنتجت دون كثير من الجهد أن مستقبل التنمية في العراق ينذر بالخطر، وقلت ليومها لأساتذتي وزملائي إن القطاع الخاص سيغيب، وإن القطاع العائلي سيتحلل، وإن القطاع التعاوني سيفسد.

وارتبط هذا كله في ذهني بسبب واحد فقط هو القبضة المركزية القوية، والذكورية أيضًا.

(١٧)

لابد لي أن أقول هنا بكل وضوح ودون أي تجن إن الشعب العراقي ظلم ظلمًا

فادحًا، على الرغم من أنه تهيأت له بعض المستويات العالية في الخدمات وفي التعليم وفي الصحة وفي الإسكان، لكن الحقيقة التي لا بد أن الناس جميعًا أدركوها بعد فوات الأوان هي أن الأمور التنموية تطورت في العراق الجديد (بالنسبة لمن يتكلم عن مشاعره في ١٩٨٩)، عراق ما بعد الحرب الإيرانية، على نحو ما صارت عليه وما صارت إليه بالفعل: القوة تسيطر على التشغيل وعلى التخطيط، والقوة لا ترضى بغير القوة، والقوة تتوقف فتتوقف الحياة معها.

وباختصار شديد فإني رأيت الحياة العراقية شوبنهورية الطابع، لا تكاد تعترف بما تعترف المرأة به من دلالة بكاء الطفل وعلاقة البكاء بالجوع، ولا من دلالة استيقاظ الطفل وعلاقة الاستيقاظ بالجوع!

رأيت الحياة العراقية وكأنها مقطع من الحياة أعجب به القائد صدام وتوقفت الحياة عنده، ولم أرها شريطا سينمائيًا، كما هي الحياة التي خلقها الله.

(١٨)

في صبيحة اليوم قبل الأخير من أيام زيارتنا للعراق ومؤتمر اتحاد الأطباء العرب، كانت زيارتنا لكلية الطب البغدادية العريقة، لكننا قبل أن نبدأ فيما معهود من أمثالنا في مثل هذه الزيارات من أن نستمتع بعراقة المباني وبعراقة ما هو مكتوب على الحوائط حتى بيد الطلاب الأشقياء المشاغبين، وقبل أن نشم رائحة الماضي الغريب أو رائحة المرض المتعافي، أو رائحة المطهرات الفاعلة، والمنظفات المطهرة.. قبل كل هذا فوجئنا بأن علينا أن نشاهد وقائع «اسكتش مسرحي» من طراز قديم جعلنا نبتسم ونحن نتأسى.

ففي فناء الكلية أكشاك لبيع الكتب الطبية كما في كليات الطب عندنا تمامًا، وأحد هذه الاكشاك يتبع الدولة المركزية بصورة ما، كأن يكون مثلًا (كما هو الحال في مصر) كشكًا للهيئة العامة للكتاب (أو لدار المعارف أو لمؤسسة الأهرام أو لهيئة أو شركة مؤممة).

ونوافذ هذا الكشك كانت مغلقة تمامًا عندما نزلنا من سياراتنا التي صحبتنا إلى فناء الكلية، لكنه بعد نزولنا بدقيقة واحدة فتح الكشك أبوابه الصاج المنزلقة ذات الجرار

التي يتحرك من أسفل لأعلى، وقبل أن يقال لنا إن هذا الكشك فتح أبوابه لنا ليرينا أن الكتب والمراجع الطبية المستوردة تباع هنا بسعر مدعوم، قبل أن يقال لنا هذا، كانت جموع الطلاب العراقيين قد تدافعت على الكشك لتستفيد من هذه الفرصة «الذهبية» أو «المسرحية» التي لا تتاح إلا بين وقت وآخر.

وهكذا تدافع الطلاب والأطباء العراقيون على الكشك، الذي كان يمثل في البرنامج ما يوازي مقصدًا سياحيًا للأطباء العرب الزائرين (الذين هم نحن)، ثم تم تنظيم التدافع بعد لأي كبير ليكون على هيئة طوابير طويلة بينما معظم الضيوف الذين هم [نحن]، لم يستوعبوا الأمر على حقيقته بعد.

(١٩)

كان هذا التصرف الأرعن كفيلًا تمامًا بتدمير صورة انطباعاتنا عن النظام الاقتصادي والتعليمي في ذلك القطر الحبيب في أذهاننا.

فهذه الدولة الغنية لا تزال تتبع سياسات ناصرية خرقاء (ألجأ إلى مسمى الناصرية بينما المقصود: الشمولية) في توزيع السلع الأساسية للعلم بطريقة (تموينية) أو قطاع عامية سخيفة (مع أن ثروة العراق في ذلك الوقت ودولاراتها ورصيدها الأجنبي ومستوى الأجور فيها كان يسمح باستيراد الكتب وبيعها بأسعار معقولة)، لكن استيراد الكتب (بما فيها بالطبع الكتب الجامعية والمراجع الطبية المتخصصة) يخضع للرقابة ومن ثم للمنع والسماح، ومن ثم للفحص وقرار الإجازة أو المنع.

وهكذا كانت تمضي الأمور في تضييع الوقت ثم في السماح باستيراد محدد، ثم في السماح بتوزيع محدد، وبسعر محدد يكون في حد ذاته مغريا بالاستحواذ على ما لا يستحوذ عليه الإنسان في العادة، أي إذا كان الكتاب متاحًا في كل وقت.

كنت في ذلك الوقت، لأسباب علمية في المقام الأول، لا أزال على صلة حية ومتميزة ودقيقة بالمراجع الطبية وتواريخ صدورها في طبعاتها الأصلية، وهكذا أعرف مثلًا بدقة أن طبعة ١٩٨٩ من الكتاب الفلاني صدرت منذ ٣ شهور، وأن طبعة ١٩٩٠ من الكتاب الفلاني ستصدر في نهاية ١٩٨٩.. وهكذا.

وقد راعني وروعني أنه بعد هذه الضجة وهذه الزفة، أن الكتب التي وصلت إلى (أي طبيب في مصر) منذ ثلاثة شهور بلا أي عناء لن تكون متاحة هنا إلا بعد عام تقريبًا، لأن الإجراءات التي أشرت إليها من فحص واستيراد ونقل.. إلخ، ستأخذ خطواتها الرتيبة المتوالية في دولة مركزية بكل دقة وانتظام.

(٢٠)

أدركت في ذلك اليوم، بكل وضوح، أن العراق الحبيب إلى قلب كل عربي سوف يعاني كثيرًا جدًّا، وسوف يدفع الدم الغزير عند انتقاله من نظام صدام القوي المسيطر إلى أي نظام آخر، حتى لو كان النظام الآخر هو نظام «ابن صدام».

ومن العجيب أن المعنى الذي كنت أتصوره قد تجلى ذات مرة على صورة لا أظن أن أحدًا في العالم كله قد فهم دلالاتها في تعاقب الأجيال، وسواء كانت الصورة التي سأنقل ملخصًا لها الآن حقيقية مكتملة الجوانب أو مفتقدة لبعض الحقيقة، فإنها كفيلة بأن تطلع الإنسان العربي والإنسان المسلم على حقيقة لا بد أن يطلع عليها، وهي حقيقة إنسانية قبل أن تكون استراتيجية، أدركت شقها الإنساني وأنا في زيارة بغداد ولم أدرك بعدها الاستراتيجي.

(٢١)

يتجلى هذا المعنى الذي أشير إليه في حقيقة تداولها ورددها كثيرون؛ وهو أنه حين قُدر على بغداد الحبيبة أن تسقط في يد الأمريكيين، كان العراقيون الرسميون قد رقصوا على طبول الإعلام الأمريكي الزاعقة، التي جعلت سقوط المطار هدفًا جوهريا يعني بكل بساطة أن بغداد قد سقطت، وأن العراق قد سقطت، وأن أمريكا احتلت العراق.

ولست أدري كيف غاب عن وجدان العراقيين وعن قراءاتهم وعن مناقشاتهم أي نص أو أي فهم مما كان قادرًا على أن يصور لهم خطورة الانسياق وراء مثل هذه الفكرة الخبيثة التي فرضت عليهم من قبل الأمريكان حتى صدقوها وبنّوا ردود أفعالهم عليها، وإذا بهم بعد سقوط المطار يتناثرون، وإذا بالنظام الصدامي يتلاشى.. لكن ما بعد هذا التلاشي اقتضى تعقب صدام نفسه وتعقب أولاده وأسرته.

هذا ما أفضل وصفه بالتعبير القائل بأنه «رقص على أنغام العدو»، وهو أصعب وأقسى ما يواجه المسلمين وأمثالهم في أي معركة يدخلونها في الوقت الذي يريده أعدائهم لا الوقت الذي يريدونه هم، وبالطريقة التي يريدها أعداؤهم لا بالطريقة التي يريدونها هم، ثم إذا هم يرقصون على أنغام العدو حتى في التوافق على العامل المحدد للانتصار أو الانهزام في المعركة بل في الحرب، وهكذا كان استيلاء الأمريكان على مطار بغداد سقوطًا لبغداد وللعراق وللمشرق العربي كله.

(٢٢)

لكن للحقيقة وجهًا آخر لا أدري لماذا هو غائب عن الرأي العام المسلم حتى الآن!

نحن نعرف أن أولاد صدام عدي وقصي ماتا وهما يحاربان، أو يتصديان لهجوم من ذهبوا للقبض عليهما أو للخلاص منهما.

ونعرف أن سن صدام وحنكته جعلته يختار ما تفرضه السن من بطء وتعقل الحركة والاستجابة والانفعال، فإذا به على غير ما كان الشباب يتوقع يسلك السبيل الذي لم يكن يليق به، وإذا به يؤخر المواجهة المسلحة مع من قبضوا عليه ودفعوا به إلى سجن ومحاكمة ثم إعدام، لكننا في ظل سيطرة الإعلام الغربي نتعامى عن حقيقة كبرى ونتجاهل بطولة كبرى نادرة هي بطولة حفيد صدام حسين.

نعم.. بطولة حفيد صدام حسين.. كان هذا الحفيد مع والده وعمه حين ابتعدا عن مسرح العاصمة، وشهد هذا الطفل المعركة التي قتل فيها والده وعمه، وشارك هذا الحفيد في هذه المعركة، فقد كان بحكم نشأته قد تدرب جيدًا على إطلاق النار وعلى المواجهة وعلى الحرب.

ولم يكن عند هذا الحفيد من حسابات الحنكة ولا الدبلوماسية ما يحول بينه وبين أن يكون بطلًا حقيقيًّا وفارسا شجاعًا ومحاربًا صلبًا ومهاجمًا شرسًا، وهكذا استطاع هذا الحفيد ابن الثلاثة عشر ربيعا أن يقتل بمفرده ثلاثة عشر من أفراد القوة التي حاربها، قبل أن تتمكن هذه القوة بكل جبروتها من أن تقتله.

إذا أردت أن تعرف سر ما حدث للعراق في حربه مع الأمريكيين، فأعلم أن السر

هو أنك لم تجعل القيادة لهذا الحفيد الشاب، بينما تركت القيادة مع الجد الذي كان منذ أربعين عامًا قادرًا، لكنه بعد إرث أربعين عامًا لم يعد قادرًا.

إذا أردت أن تعرف سر نجاح الغزو الأمريكي للعراق فأعلم أنك قيدت العراق بحسابات صدام، الذي عاش هزائم الناصرية (والأسدية)، واستوحى منها القدرة على المناورة وعلى البقاء، بينما كان الحفيد يستلهم تراث الإسلام الذي جعل نبي الإسلام ﷺ يؤّمر على الجيش أسامة بن زيد، ويجعل أبا بكر وعمرًا من المشاركين فحسب تحت قيادة الشاب أسامة بن زيد.

(٢٣)

لو أن حفيد صدام هو الذي قاد الجيش العراقي لتغير وجه التاريخ كما تغير وجه التاريخ في بدء العصور الإسلامية، لكن الخبرات والحسابات والتجارب والإجراءات والموازنات والاستراتيجيات كانت كفيلة بضياع العراق ولسنوات طويلة.

لم يكن حفيد صدام حسين ليعنى بالفرق بين الحزبين الأمريكيين الجمهوري والديمقراطي، ولا بالفرق بين مبارك وأبو غزالة، ولم يكن في قتاله أو إدارته للمعركة ليخسر شيئًا بجهله بمثل هذه المعلومات أو الفروق، لكنه كان يستطيع أن يصيب العدو ويستعيد الصديق، ولهذا قتل وحده ١٣ من أفراد المهاجمين حين كان في صفوف المدنيين المفاجئين بالهجوم.

فما بالك لو كان هذا الحفيد في أرض المعركة يلهب حماس العراقيين، لو أتيح له ذلك الموقع في ذلك اليوم الذي قيل إن بغداد سقطت فيه لتغير وجه التاريخ تغيرًا تامًا.

لو استشارني صدام حسين قبل فوات الأوان، لاخترت أن يكون الحفيد هو قائد الجيش العراقي، لكننا لن نصل إلى مثل هذا التفكير قبل مائة عام.

(٢٤)

رأيت العراق في ذلك الأسبوع السعيد الذي زرته فيه، وهو يريد أن يتحرر من قيود كثيرة وضعتها عليه الحرب، كأنه يريد أن يغسل زجاج نوافذ البيوت من اللون الأسود

الذي كانت الدكتاتوريات تفرضه على المواطنين حتى توحي لهم إيحاءًا ثقيلًا بخطوات الحرب وثقل هذه الخطوات.

ذهبت العراق وفي ذاكرتي من فترة حرب الاستنزاف ذكريان:

• سادت تجارة تسويد النوافذ حتى لا يرى العدو الاسرائيلي بيوتنا المصرية فيقذفها بطائراته.. وكنا نصدق أننا نؤدي عملًا وطنيًا بهذا التسويد.

• وسادت أيضًا تجارة من نوع آخر تبنى فيها سواتر من الطوب بسمك نصف متر وارتفاع مترين وعرض مترين أمام مدخل كل عمارة حتى تحول بين شظايا المتفجرات وبين الدخول إلى مداخل هذه العمارات.

وبعض هذه السواتر وإلى وقت قريب كان لا يزال موجودًا أمام بعض عمارات القاهرة الكبرى.

كانت هاتان الذكريان تقفزان إلى ذهني كلما شاهدت في بغداد وفي الكوفة وطوال الطريق ما يدل على مظاهر ودلائل الاستنفار المعنوي، الذي بذلت حكومة العراق جهدها فيه من أجل أن يعيش العراقيون حالة المواجهة، ولا أقول حالة من الحرب.

(٢٥)

وبدا لي من رغبات المواطنين في التحرر من قيود المعركة وتباطؤ الحكومة في هذا التحرر أن الحكومة قد استمرأت المضي في فكرة جو المواجهة، مثل كل الحكومات التي تفضل استمرار فرص حالات الطوارئ، ولا تسارع إلى رفعها بمجرد انتهاء الحرب. حتى إن التاريخ السياسي يحدثنا بكل وضوح أن بعض الدول العربية العسكرية لا تزال تجدد فرض حالات الطوارئ منذ حرب ١٩٤٨ وحتى الآن بمبررات مختلفة.

كنا، على سبيل المثال، نذهب إلى مطعم من المفترض أنه مطعم فحسب، أي أنه ليس جزءًا من نادي من نوادي القوات المسلحة مثلًا، لكننا نجد الحضور العسكري ظاهرًا وطاغيًا (ولا أقول مستفزًا) في صورة حراسة وتفتيش، وتسجيل أسماء وأوقات دخول وخروج، صحيح أننا كنا نلقى التكريم متبلورًا في الاستثناء من الوقوف للتفتيش، شريطة أن ندخل معًا على هيئة جماعة، لكن كانت آلية التفتيش موجودة وكان مسئولو التفتيش موجودين وظاهرين بل وفي ملابس عسكرية وأمنية.

كان من الصعب عليّ في ١٩٨٩ بعد ١٢ عامًا من زيارات أوربية وأمريكية متعددة (بل وهندية وكينية) أن أرى مثل هذه التحفظات في مطعم أو نادي أو مكان للسهر، لكن جو التعبئة يفرض نفسه، وكنت أفهم بالتالي حقيقة مؤكدة يتجاهلها كثيرون من كتاب السياسة والتاريخ وهي أن «الأمن» يستقطع من «الحرية» مساحات متعددة حتى لا يبقى من نسيج الحرية إلا الاسم.

لكن حب العراق وحب تاريخ العراق وحب نهري العراق كان يجعلنا جميعًا نتحمل كل هذا الذي نراه، ونحن واثقون أن بغداد ستتحول إلى مدينة حرة عن قريب، لكننا كنا فيما يبدو لا نجيد التوقع الصائب.

(٢٦)

والواقع أن لجوء العراقيين إلى أن يحدثوننا عن الذكريات البعيدة بعيدًا عن الأحوال الراهنة أو القريبة، كان كفيلا بأن ينبهنا من حيث لم نحتسب أو نتحسب إلى أن العسكرة ذهبت بالعراق وببغداد بعيدًا بعيدًا عن الحياة الطبيعية.

أذكر أننا لما ذهبنا إلى مطعم على شاطئ النهر تصورنا (من باب السذاجة) أننا سنطعم مما سيتم صيده أمام أعيننا ، كما هو الحال في بلاد أوربية كثيرة (بل وفي مدن صحراوية أرادت أن تضفي طابع الرفاهية على سكناها)، لكننا سرعان ما علمنا، ولا أقول فوجئنا (فقد جاءت المعلومة بالتدريج الممل) أن هذا هو رابع المستحيلات!!

وحين تصورنا أننا ربما نجد السمك حيًا في أحواض من الماء اكتشفنا أننا نتحدث مرة أخرى عن مستحيل ثان.

ثم فهمنا بعد مناقشات طويلة أننا على شاطئ النهر جغرافيًا فحسب لكننا لسنا على شاطئ النهر بيئيا ولا عمليا، وإنما نحن أقرب ما نكون إلى الوجود في مدينة غير بحرية أو غير نهرية.

ولما كانت مدينة الرياض (كما أشرت) تتيح في بعض مطاعمها الاختيار من سمك حي، فقد كان بعض من عملوا في الرياض وخاضوا هذه التجربة يتصورون أن بالإمكان أن يصادفوا فرصة شبيهة، وهم لا يعرفون أن قيود الحرب لا تتيح للسلع خطوط السير

السريع الذي يستبقي الحياة على هذا النحو، وإلا فإن هذا الخط كفيل بأن يسرب ما هو ضد أمن الدولة وضد أمن النظام.

وعند ذاك فهمت لماذا تعتبر بعض الدول تخصيصها الخطوط الخضراء لانتقال الخضراوات الطازجة نوعًا من أنواع التقدم الحضاري واللوجيستي والبيئي أيضًا، ثم هو دليل على أن الدولة تجاوزت مرحلة «دولة أمن الدولة»، وهي مرحلة قاسية.

(٢٧)

الحق أقول لقارئ هذه السطور.. إننا كنا باختصار شديد نرى الطبيعة في ذاكرتنا عن العراق وعن بغداد.

نراها تاريخًا ونراها شعرًا.. نراها قصصًا من ألف ليلة وليلة والسندباد.

ونرى الحب في عيون العراقيين، ونرى الوجد بالعراق وببغداد في عيون كل الزملاء من اليمن والجزائر ومن الأردن ومن المغرب ومن السعودية ومن تونس ومن سوريا ومن الخليج ومن لبنان ومن ليبيا.. لكننا جميعًا كنا نبحث بشدة عن بغداد في بغداد.

كان من الواضح لنا، وكلنا تقريبًا من الذين يترددون على أوربا، أن العراق تعيش طفرة في الثروة، وهي طفرة حقيقية، لكنها لا تعيش الرفاهية الحقيقية ولا الثراء ولا الارتقاء، على حين أن دولًا عربية مجاورة لها كانت تعيش الرفاهية الحقيقية لكنها لا تعيش جوهر الارتقاء نفسه.. وعلى حين أن الدول الأوربية التي كنا نريد أن نقول إننا نعرفها تعيش الارتقاء سواء مصحوبًا بالرفاهية أو غير مصحوب بها.

وكان السر في هذه الثنائيات أو المفارقات راجعًا في جوهره وفي مظهره إلى مدى إدراك السلطة الثورية أو الدولة الشمولية لمعنى وحدود الخدمات العامة، ومعنى السعادة نفسه، ومعنى الإسعاد والسعد!

(٢٨)

أعود لأقول إن نعمة الله الظاهرة في التدفقات النقدية كانت تعبر عن نفسها في وفرة الإمكانات المطلوبة لكل خدمة من الخدمات، لكن المعرفة التفصيلية ببناء مؤسسات

الحضارة كانت قاصرة عن أن تدرك حقيقة الاكتمال في الخدمة أو في قدرتها على الإسعاد.

كان هذا هو تشخيصي الذي صارحت به أساتذتي، حين أرادوا أن يستمعوا إلى رأيي فيما أرى، وكان هو أيضًا تشخيصي الذي جاهرت به في حديثي إلى الأصدقاء العراقيين على مدى سنوات بعد ذلك.

ولنضرب مثلًا بالحاجة إلى علاج مرض من أمراض الأورام أو فلنقل معالجة مرض سرطاني، كانت العراق وكذلك كانت الدول العربية المجاورة لها تؤّمن هذا العلاج لمواطنيها مهما كانت تكاليفه، وكانت النظم الطبية المنفذة هنا وهناك كفيلة حقيقة وفعلًا بأن تغطي النفقات المالية، لكن فاتت على هذه النظم حقيقة أن علاج الحالة المرضية نفسها لا يتوقف على توفير الدواء المكلف أو الجراحة المكلفة، وإنما يتعلق الأمر بمنظومة متكاملة من علاج نفسي، وعلاج أسري، وعلاج تمهيدي، وعلاج تالٍ، وعلاج معاود أيضًا.

ربما أقفز هنا للإشارة إلى أن مراكز العلاج الأمريكية المعنية بعلاج القلب (أو الأورام) في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بريطانيا (وفي دول أخرى) تعمل في هدوء على أن تتآزر معها جمعيات خيرية أو أهلية (مؤسسات المجتمع المدني تدعمها الحكومة بكل قوة، وتراقبها الحكومة أيضًا بكل جدية)، وتقدم خدمات إنسانية لا يمكن للعلاج أن يتم ولا أن يكتمل بدونها، لأنها على سبيل المثال توفر للمرضى الأجانب سكنًا ميسرًا بمقابل معقول في شقق محجوزة بصفة دائمة في عمارات سكنية أو أحياء سكنية قريبة من المستشفى الذي يعالج مريضهم فيه.

(٢٩)

أتوقف هنا لأشير إلى الحقيقة الموازية وهي أنه إذا لم توجد في بلاد عظيمة (كالعراق) مثل هذه الإمكانية لتقديم مثل هذا الدعم المعنوي والأسري لعائلات هؤلاء المرضى، فإن منطق الحاجة يدفع بنا إلى آلية السوق وتجارة المساكن المؤجرة لمدد قصيرة تنشط في محيط مثل هذه المستشفيات، سواء كان ذلك في مدينة منظمة مثل باريس أو في مدينة تعرف معنى النظام وإن كانت لا تمارسه مثل القاهرة.

وأنت تعرف أنك في القاهرة تجد نفسك أمام مجتمع طبي مواز للقصر العيني، حتى إن مرضى فلسطين وسوريا واليمن وليبيا وغيرها من الشعوب قديمة الحضارة المرتبطة بالقاهرة ومؤسستها الطبية العظيمة العريقة المتمثلة في قصر العيني تأتي وهي مطمئنة إلى أن الحاج عبد الموجود صاحب محل العصير الذي على الناحية اليمين في الشارع الفلاني سيتولى تسكين هؤلاء الذين يفدون إليه من المطار رأسا، حتى وإن لم يكن هناك مكان جاهز فإنه سيوفر لهم مكانًا ليوم أو يومين ريثما يوفر لهم مكانًا أكثر استقرارًا لمدة أطول.

تحفل البلاد القديمة بمثل هذا النموذج من التعامل مع المشكلات لكن دولة العراق في ظل نظام الحكم الشمولي الذي كانت تعيش طفرته الاقتصادية لم تكن قد وضعت أساس هذا النظام لا هي ولا دول الخليج المجاورة لها.. وهكذا أصبح الأمر الأيسر والأسهل على أي مريض من هذه الدول أن (يتناول) أو (يتعاطى) علاجه في منظومة وطنية أخرى غير منظومة وطنه.

(٣٠)

وهكذا لم يُقدر للطب في العراق أن يتفوق حيث كان التفوق ميسرا له، كان الأساتذة الذين رأيناهم من مستوى متميز، وكانوا لا يقلون عنا أو عن أفضلنا أو عن أفاضلنا تأهيلا ولا كفاءة، وكانت المناهج والكتب والمقررات والظروف كلها تتفوق على ما نعرفه في مصر، لكن (المستهلك) أو المستهدف النهائي، وهذا هو الوصف الدقيق الذي يمكن أن نعبر عنه باللفظ التجاري End User وهو «المريض» و«أهل المريض» لم يكونا من القوة الفاعلة والمؤثرة المباشرة بحيث تتوجه الخدمة الطبية في النهاية للحصول على رضاهم النفسي (أو أموالهم) .

وهذا هو الحديث الذي اعتبره من أوليات الأحاديث المهمة المرتبطة بتأميم الطب، أو بضرورة تأميم الطب في مرحلة ما ثم العدول عن تأميم الطب في مرحلة تالية، فأنا قبل كل شيء من أنصار الطب الحر الذكي في حركته، لكني أفهم أن تأميم الطب يستدعي تأمين (وإيجاد) منظومة كاملة للشعب كاملا، وليس تأمينًا للعلاج أو الدواء فحسب، وليس تأمينا للفقراء أو للموظفين أو «المنسوبين» أو المواطنين فحسب.

وهنا قد تتمثل الفجوة الصارخة أو الظاهرة التي تنشأ من محاولة الكمال دون عناية بجوانب مهمة في تحقيق التكامل أو الاكتمال نفسه.

فليس من الحكمة أن أتيح الدواء ذي الألف دولار مجانًا ثم أطلب من المريض أن يأتي بكيس ورقي ليأخذ فيه حبات هذا الدواء أو مسحوقه أو معجونه.. وإنما الحكمة إنني إذا قدمت من الدولة للشعب شيئًا يوازي الألف دولار فلا بد أن أقدمه ميسرًا مكرمًا حتى لو ارتفعت التكلفة إلى ألف دولار وعشرة أو ألف دولار ومائة.. بل إنني أفضل أن أقدم البديل الأرخص الذي لا يتكلف إلا مائة دولار فقط على أن يدوم وعلى أن تسهل إتاحته وتكراره، على نحو ما يفعل الفرنسيون بكل وضوح.

وقد عُرف عن الفرنسيين وحكوماتهم وإداراتهم للمنظومة الطبية أنهم في كل جزئيات ممارساتهم الطبية يفضلون البديل الأوفر على طول الخط، ولا يلجأون أبدًا إلى البديل الأغلى مهما اتهموا بالبخل والشح والتقصير، وهكذا أتيح لهم أن يمتدوا بمظلتهم التأمينية امتدادًا واسعًا دون أن تئن المنظومة من التكاليف والنفقات والزيادات.

وهم يفعلون هذا حتى في مضادات التخثر ومضادات المناعة، دون أي حرج أو إحساس بالحرج.

(٣١)

أعرف دولة خليجية هادئة ألزمت نفسها بالنظام البريطاني في الرعاية الصحية، فلا تستورد الدواء إلا عن طريق واحد أو من سبيل واحد، ولا تضع نفسها في أي لحظة تحت رحمة السباق المحموم بين مندوبي شركات الأدوية وآراء أساتذة الطب وتوجهاتهم وعلاقاتهم واقتناعاتهم، وهي لهذا توفر الدواء كله وتستورد الدواء كله وتتيح الدواء كله بالمجان، وبالطبع فإن الفساد غائب تمامًا عن منظومتها الصحية والدوائية في الجزئيات المتعلقة بالإمداد الطبي، وهو شبه غائب عن المنظومة كلها بالطبع.

وفي المؤتمرات الدولية يحدث أن نلتقي بأطباء هذه الدولة سواء أكانوا من الوطنيين أم من المقيمين الذين يمارسون المهنة محتفظين بجنسياتهم الأصلية، فنجد أنهم جاءوا

بمعرفة الدولة دون علاقة للشركات بهم ولا بنفقاتهم ولا بدعوتهم ولا تمويلهم ولا استضافتهم، على نحو ما هو الحال في كثير من الدول المجاورة لها.

لم أبتعد عن العراق فيما رويته لتوي إلا لأقترب منها، فظني الذي يرقى إلى درجة معقولة من اليقين أنه كان في وسع الدولة في العراق مبكرًا أن تقود توجها جديد في التأمين الصحي والعلاج الطبي وفي ممارسة مسئولية الدولة عن الصحة، وأن تجعل من مثل هذا التوجه سابقًا على التوجه المصري العتيق الذي أصبح (بحكم تاريخ من التقلبات المتلاحقة) حافلًا بالرقعات المهينة، لكنها، أي العراق، انشغلت بأمور أخرى في ظلال الاستراتيجية، فبقي نظامها الطبي شأن نظام مصر الطبي في الستينيات: يقدم خدمات قاصرة للعموم ويسمح بخدمات مميزة للخاصة، راميًا بالسبب في قصوره على التمويل، بينما إجمالي الإنفاق الوطني الذي يقدمه كان قادرا على أن يقدم ما هو أفضل من أوربا.

(٣٢)

شغلتك بالطب وكان الأولى أن أحدثك عن المعمار، لكن الطريف أن مشكلة المعمار في العراق هي نفسها مشكلة الطب، فهذا البلد الذي قدم للعالم المعاصر عددًا من رموز العمارة البارزين المتميزين المؤثرين، يكفي أن منهم المهندسة زها حديد، ومنهم من هو أنبغ من زها حديد، هذا العراق العظيم لا تزال حكومته تعتمد بصمة أو صيغة معمارية لا تنقذه من جهامة الستينيات، أو جهامة «السوفيتات» على نحو ما يعرّفها الناس.

ومن الحق أن المسئولين العراقيين معذورون فقد كانوا يذهبون إلى العالم الشرقي في رومانيا والمجر وبلغاريا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية فضلًا عن الاتحاد السوفيتي نفسه فيجدون ما سُمي من باب المجاملة باسم نماذج العمارة الشعبية والعمارة الوظيفية منتشرًا فلا يجدون مانعا في أن يحتذوه، بينما كانت بودابست وبوخارست وصوفيا وبراج تحتفظ من آثار العثمانيين، وآثار سليمان القانوني وأمثاله من الخلفاء المستنيرين بكثير من معالم الفن الجميل المؤثر.

ولست في حاجة إلى أن أصور لك أن العراق في ذلك الوقت الذي زرناها فيه كانت

تعاني هي الأخرى من غياب السياسات الإسكانية للأعداد المتزايدة من المواطنين والزائرين، وهو مقياس من مقاييس قدرة الدولة على توفير الحياة وعلى تنظيم الحياة.

(٣٣)

لست أحب أن أكون في هذا الحديث «الرحلاتي» ناقدًا لأشياء كثيرة، ولا أن أكون مرددًا للإعجاب بأشياء أخرى، لكنني في رحلاتي لا أزال ملتزمًا بما ألزمت به نفسي منذ بدأت كتابة الرحلات في ١٩٨٠، من أن أنظر إلى مكانة ما أراه من تاريخ التقدم وهل هو يسير بنا إلى رقي، أو في مدراج الرقي، أم أننا نسير إلى وضع حلول تلفيقية لمشكلات طبيعية يقود تلفيقها إلى تصعيب ما هو موجود، وإلى تعقيد الحلول أمام مَنْ هو قادم من نظام تال أو زمن تال.

كنا نحن الأطباء الذين نزور العراق في تلك الزيارة عام ١٩٨٩، نشعر بكل وضوح أن صدام يؤسس من حيث لا ينكر أحد لدولة صدامية يخلفها فيها أبناؤه، ولم يكن هذا صعبًا على أي إنسان يحب الملاحظة ولا يستطيع الإنكار المتكلف أو المتعمد، فأنت كصاحب سلطان إذا أردت أن تنأى باولادك عن السلطة فأنك تأخذ بهم إلى طريق آخر بعيد، ولا تكتفي بالنفي أو بالوعد أو بتقنين مشاركاتهم أو التظاهر بتقنين مشاركاتهم في الحياة العامة.

وعلى سبيل المثال فإن الرئيس الذي لا يريد لأولاده أن يرثوا السلطة يخرجهم من بلادهم ليمارسوا التجارة أو ما يسمى «المشروعات»، إذا أرادوا بعدًا عن منطقة النفوذ الأوتوماتي أو الذاتي، أو يخرجهم من بلادهم ليمارسوا الطب أو الهندسة في أعظم (أو أنسب) مكان متاح، بعيدًا عن مناطق المجاملة والنفوذ الوضعي أو المعنوي، لكن الحاكم الذي يترك أولاده يحتلون مناصب رسمية أو شبه رسمية هنا وهناك يدفع بهم دفعًا إلى التوريث مع ما يصحب ذلك من إنكار غير مقنع لما هو واضح وما هو معلن، ولا يجدي نفيه شيئًا.

(٣٤)

كنا نعرف هذا كله من الواقع الذي يحدثنا ويتحدث إلينا بوضوح، ونرى في الوقت

ذاته اختيارات صدام لمناطق نفوذ أبنائه وهي تنطق بأنها كان أكثر تعبيرًا عن التوريث من الحالة الوحيدة التي حدث فيها التوريث (بعد ذلك) بالفعل، وهي حالة حافظ الأسد وبشار الأسد، ولست من أنصار الحكم على الأمور من منطق أن صدام فشل فيما نجح فيه حافظ، لكني لا أنفي مثل هذا القول، وإن كان النفي متعلقًا بظروف أخرى غير تلك المرتبطة بإدارة هذا أو ذاك.

لكني أرى في الأمور منطقًا آخر تعلق بالمسار المؤهل وبالتدريب المبكر، وهنا أستطيع أن أقول إن صدام كان في بداية الطريق وفي وسط الطريق متفوقًا تمامًا على حافظ الأسد، فقد كانت الصلاحيات (والنجاحات) التي حققها قصي وعدي أكبر بكثير من الشكليات التي نسبت إلى بشار وأقنعته بأنه من الممكن أن يكون شيئًا ذا بال، حتى وقعت الطامة الكبرى التي لا نزال نعيشها حتى يومنا هذا ولم يتوقف أثرها على دمشق ولا على سوريا، وإنما امتد ليشمل العالم كله.

ومن العجيب أن منطق الواقع يقول بكل وضوح إن صدام كان صاحب الخطوات الأكثر ثقة في هذا المسار الذي ارتاده حافظ الأسد بخطوات أقل ثقة، وارتاده معمر القذافي بخطوات أقل مهارة، وارتاده علي عبد الله صالح بخطوات أقل نعومة، وارتاده مبارك بخطوات أقل في كل شيء في المهارة والثقة والنعومة والإقناع، ولهذا بقي لكل من هؤلاء نصيب من الممارسة وبقي للتجربة المصرية تكرار الحديث عن الإنكار فحسب.. فأنت حين تناقش المصريين حتى يومنا هذا تجد مَنْ يناقشك بأنه لم تحدث أية خطوات في هذا السبيل.

ومع كل هذا الذي رويناه لك، فإني أقول ما لاحظته وقتها بصراحة، وهو أن العراق كانت حين زرناها تفتقد إلى الحلم، على الرغم من أن الواقع كان قويًا.

(٣٥)

كان من الواضح أن الواقع لن يغني عن الحلم، لكن الحلم في حقيقة الأمر كان غائبًا بينما كان في الوقت في الوقت ذاته ممكنا.

ومن العجيب الذي لا يلتفت إليه أحد أن ظلال الهزائم الناصرية كان يفرض نفسه

بكل قوة ووضوح على التجربة العراقية، على نحو ما كان الزهو الناصري قد فرض نفسه عليها من قبل.

كان من الواضح أن العراق قد شغل نفسه مثل الحالة الناصرية بالحديث عن معنويات غير محددة، في ظل عدم رغبته في أن يدخل في مقارنات مع مثل عليا.

أبسط لك هذا الأمر الذي يبدو لي أن صياغتي قد عقدّته عليك، فأقول: إنني وأمثالي في كليات الطب لا نمانع في أن يكون ترتيبنا في امتحان من الامتحانات واقعا بعد المائة وبعد المائتين، إذا كان المنافسون ألفا أو ألفين، ونحن نعرف بالممارسة أن الشريحة الفوقية التي تشمل ما يمثل ٢٠٪ أو ٢٥٪ أي الأوائل تدل على التفوق، وأن التفوق ليس حكرًا على الأول والثاني.

بل إن الدفعات الحالية في كليات الطب العالمية (والمصرية) الأن تسجل أن الفارق في مجموع الدرجات بين الأول والثلاثمائة لا يتعدى ٢٪ من الدرجات، وهو فارق قد تصنعه مصادفة الجلوس في امتحان الشفهي في مادة واحدة فقط أمام أستاذ كريم في درجاته أو أستاذ ممسك في هذه الدرجات.. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتعالم فنقول إن الأول أو العاشر أفضل بكثير جدًّا من الثلاثمائة، بينما الفارق بين درجاتيهما ١٪ فقط.

(٣٦)

أقفز من المثل السابق لأصل بك إلى جوهر القضية في التنمية ولأصور لك موقف العراق (وأي عراق جديد) من مشروعات التنمية الطفروية أو المرتبطة بالطفرة التي يمكن أن توجد في أي مكان في العالم، حين يشغل نفسه بتنبوءات بعيدة عن مؤشرات التنمية البشرية حتى يظهر مثلًا في:

- المرتبة ٢٣ في المؤشر الأول.
- المرتبة ٣١ في المؤشر الأول.
- المرتبة ٢٩ في المؤشر الثاني.
- المرتبة ٣٩ في المؤشر الثالث.

- المرتبة ١٧ في المؤشر الرابع.

- المرتبة ٥١ في المؤشر الخامس... وهكذا.

ماذا لو أن العراق (وأي عراق جديد) خطط لأن يتقدم في كل مكانة من هذه المكانات إلى ترتيب يسبق الترتيب الذي أحرزه في العام الماضي بخمسة مواقع في خلال سنة، أو بعشرة مواقع في خلال عامين؟

لماذا كان يظن (صدام)، ولماذا يظن أي صدام جديد أن واجبه أن يكون الأول، وأنه لن يتكلم أو يقارن نفسه إلا بعد أن يكون الأول؟

هذه الشوفونية هي التي تجعل خطط التنمية في العراق وفي كل عراق شيئًا غائبًا، وهي التي جعلت العراق ينشغل مثل التجربة الناصرية (ونسخها السابقة واللاحقة) بالمعنويات حتى إذا ما فشل فيها اضطر إلى تعويضها مباشرة بالمعنويات الفنية، صانعًا زمنًا من الفن الجميل غناء وطربا، لاجئا إلى فن الإنشاء والتعبير بدلًا من فن الإنشاء والتعمير، أو مستعيرًا زمنًا من الفنون الأوبرالية بينما هو عاجز عن توفير المياه النقية.

وهكذا تنحل المشكلة على يد صلاح جاهين ببناء الأوبرا على الترعة وربما تردم الترعة نفسها، ليكون محيط الأوبرا نظيفًا مشرقًا مبهجًا خاليًا من البعوض، وليكون أيضًا خاويا معبرا عن التجربة المعروفة لنا، مثل محتواها المعنوي تمامًا.

(٣٧)

وأخيرًا لو سألتني عن بغداد التي رأيتها لمرة واحدة في حياتي منذ ربع قرن، وأنا أكتب عنها اليوم معتمدًا على الفقرات السريعة التي سجلتها يومها لأعيد صياغتها فإني سأقول لك:

- رأيت بغداد تريد السعادة لكنها كانت مقيدة.
- رأيت بغداد تريد الرفاهية لكنها كانت متشحة بالحرب .
- رأيت بغداد تريد أن تحتفظ بمكانها كثاني مدينة عربية بعد القاهرة، لكني عرفت أن منافساتها كثيرات، وأنهن تركن للقاهرة هذا الماضي بحكم ضخامتها

وبدأن ينافسن بغداد حتى ازيحت بغداد من مكانها الثاني إلى موضع بغير ترتيب، فقد سبقتها مدن كثيرة لا تملك كل مقوماتها لكنها أصبحت حاضرة على الخرائط العالمية بوضوح غطىّ على بغداد.. وإن لم يغط على ظل بغداد ولا على ضمير بغداد.

(٣٨)

وأسأل نفسي الآن وقد امتلأت عيناي بالدموع: هل تعود بغداد، أم تلحق بها القاهرة، ودمشق، وصنعاء؟ هل قدر لك يا محمد أن تشهد كل هذا الألم وأن تعيش كل هذا الألم، الذي لم تتصور أنه سيلازمك وسيهاجمك مع الرؤية ومع الذكرى، مع القراءة، ومع الكتابة، مع الحديث، ومع النشر.. واسترجع باكيًا وأنا أقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل الثاني

تونس ١٩٩١

(١)

أبدأ بداية عقلية غير فلسفية، تعبر عن تفكير عابر يسيطر على من يريد أن يفهم حال تونس حاضرًا ومستقبلًا.

ماذا ينقص تونس لتكون من عواصم العالم الثقافية، ربما يدهش القارئ إذا قلت له إنه شيء واحد فقط: هو أن تتخلى بعض الشيء عن اللغة الفرنسية.

ذلك أن تونس تجمع كل مقومات المدينة الثقافية النموذجية من مناخ جميل دافع إلى الإبداع، ومشجع على الإطلاع، ومحفز للفكر، ومن تراث معماري وسكني جميل قادر على أن يتيح العزلة والاتصال معًا، وأن يحقق الخصوصية والمجتمعية معًا، وأن يجعل الطالب محدود الدخل قريبًا من الأستاذ المتمكن ذي الدخول المتعددة دون حواجز بين أحياء وأحياء أو بين معيشة وأخرى.

وأنت تستطيع أن تمضي في هذا التعداد الذكي لجوانب العظمة الحيوية الموجودة بالفعل (وبأكثر من الفعل) وبالطبيعة (وبأكثر من الطبيعة) وبالقصد (وبأكثر من القصد) وبالتخطيط (وبأكثر من التخطيط) في مدينة معقولة الحجم والمساحة، عظيمة التكوين والموارد والظروف، تناسب الثقافة وتصاهرها وتصهرها وتستوعبها وتضيف إليها.

(٢)

وأنت إذا أردت سلوك هذا السبيل فإنك قادر على أن تجد ما يدعم رؤيتك وما يؤكد مذهبك، وما يجلو لك من الحقائق القائمة على الأرض ما يشجعك على أن تقول إن تونس الحبيبة أو تونس الخضراء قد خلقت للثقافة ولا لشيء غير الثقافة.

وأنت إذا أردت أن تعدل عن مثل هذه الرؤية فلن تعدل بسهولة ولا بغير سهولة، وإذا أنت ميال إلى أن تعود لتقول إنك تستطيع أن تمشي في الطريق الثقافي التونسي إلى ما لا نهاية له، لا يقيدك شيء ولا يعوقك شيء ولا تجد نفسك متفوقا إلا بفضل (ولا نقول بسبب) ظلال الفرنسية القابضة على ما لا ينبغي لها أن تقبض عليه من مقومات مجتمع عربي موغل في عربيته، إلى حد لا يسمح بمشاركة الفرنسية بحال من الأحوال.

لكن الإقرار بمثل هذا صعب على مَنْ نشاؤا على غيره.

(٣)

تستطيع أيضًا بكل الصدق والحب وبكل التقدير أن تنظم قصائد المديح في عروبة أهل تونس وذكاء أهل تونس وجدية أهل تونس وإطلاعهم على التاريخ والأدب، ومحصولهم من الشعر العربي والفن العربي والقص العربي الروائي والفن العالمي والإسهام الوطني فيه.

تستطيع هذا كله دون أن تبذل أي عناء ودون أن تتكلف أي تكلف.. أي أنك لن تثبت وجود ما هو غائب، ولا نفوق ما هو ناضب.

وتستطيع أيضًا أن تذكر أن هذا البلد الجميل كان مثابة أمنٍ لكثير من أسماء الحضارة على مر الزمان، فتذكر في هذا المجال ابن خلدون ومحمد عبده وأبو القاسم الشابي، وتستطيع أن تتذكر ابن عاشور الأب وابن عاشور الابن.. وتستطيع أن تذكر أن هذا الوطن العظيم كان يتمتع بحظ كبير من الثقافة السياسة جعله أكثر (وأبكر) الشعوب العربية إدراكا لمعاني الديموقراطية ودورها في المجتمعات الوطنية، أعني الديموقراطية التي ينبني عليها تشكيل برلمانات وحكومات وأحزاب وأغلبية ومعارضة، وليس مجرد الفكرة الديمقراطية العظيمة التي تنحصر عند المخارج وترجح الأسلوب الأول على الثاني أو الشخص الأول على الثاني.

(٤)

تستطيع أن تثبت لتونس حقيقة أنها صاحبة أول دستور عربي، وأنها استضافت

أحمد فارس الشَدياق، ثم استقطبت، ولا نقول استضافت، عددًا من رموز الأزهر من توجهات فكرية متباينة في الإصلاح والتجديد والتغريب والتقريب، وكان من هؤلاء على سبيل المثال الشيخ حمزة فتح الله، بكل ما هو معروف عنه من حفاظ على التقليدية.

لكنك مع هذا كله تستطيع أن تدرك دون إنكار ولا موارية أن هناك شيئًا هينًا وبسيطًا لكنه متحكم في المفاصل، وأن هذا الشيء يعوق تونس عن أن تنطلق انطلاقتها الخاصة الوثابة في الفكر والثقافة والبحث العلمي والتعليم العالي والنظم الجامعية والمدرسية.

هذا القيد يتمثل فيما حدث بحكم عوامل طارئة أو وافدة من توثق الارتباط الأكاديمي باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية والمجتمعات العلمية الفرنسية، وهو ارتباط بات تقليديًا، وإن لم يصبح ولن يصبح طبيعيًا بحال من الأحوال.

(٥)

بات هذا الارتباط العضوي بلغة الفرنسيين تقليديًا وكأنه أمر مفروغ منه، بحيث لا يجد التونسيون الواثقون من أنفسهم ونهجهم غضاضة في أن يسموا (أو يصفوا) مناهجهم أو نظمهم بالنظم الفرنسية.

وهم لا يجدون غضاضة في أن تبدو نظمهم ومناهجهم فرنسية الطابع تمامًا، فهم لحسن حظهم (أو لسوء حظهم في الغالب) لم يخبروا الصراع بين ثقافة أنجلوسكوسينية وثقافة فرنسية لاتينية، وهم لم يتعرضوا في علاقاتهم بالولايات المتحدة الأمريكية لدرجة من درجات الاستغراق التونسي ولا لدرجة من درجات سياسة الاغراق الأمريكي، وإنما كانوا ولا يزالون ضيوفا عابرين على المناهج الأمريكية والأساليب الأمريكية، حتى إنهم أخذوا منها وأفادوا دون أن يعنوا بتأصيلها في مجتمعهم ولا بالبناء عليها في خططهم.

وهكذا ولدت لتونس صناعة ثقافية لها طابعها وليس لها سرعتها المرجوة لسبب واحد هو ذلك الرضا بالارتباط بالمناهج الفرنسية الأكاديمية دون ثورة أو تململ،

ولو كانت الثورة الأكاديمية قد لقيت حظها في تونس لكان مردودها خيرًا ونعمة على الأمة العربية كلها، لكن البورقيبية كانت تجيب على الأسئلة إجابات تحتفظ بالأصل الأزهري حتى لو تخطته بتعسف، وتقدم البديل الفرنسي حتى لو خلطته بالخطيئة، وما بين التخطي المتعسف والتخطي المفروض، بقيت عقبة من عقبات التحول في خطة المجتمع التونسي العلمي المعاصر.

(٦)

التونسيون مستوعبون جيدون للثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية من قبلها، قريبون من فرنسا اتصالًا وسفرًا وذهابًا وعودة، تكثر بعض طوائفهم من زيارة فرنسا والعمل فيها، لكنهم يحتفظون بالقدرة على المراوحة بأفكارهم وتوجهاتهم ما بين هنا وهناك.

وهم لا يذهبون في فكرة الانقطاع عن الوطن إلى الحد الذي يصل إليه بعض جيرانهم من العرب، كما أنهم لا يذهبون في فكرة إنهاء العلاقة بفرنسا بعد حصولهم على شهاداتها، كذهاب المصريين الذين يعتبرون علاقتهم الفرنسية مرحلة منتهية بالتأهل أو الشهادة.

ولهذا فإنك تجد كثيرًا من التونسيين الأكاديميين يعودون إلى سوق العمل التونسي، بعد أن يكونوا قد مارسوا العمل الأكاديمي أو المهني في فرنسا بدرجات مختلفة ومتنوعة.

(٧)

والآن يعُوز التونسيين أن يستدعوا شيئًا يقلب طبيعة هذه العلاقة المستقرة التي وقفت بالإبداع الثقافي التونسي المعاصر عند حدود أقل من إمكاناته وتجلياته، يحتاجون إضعافًا ولو متعمدًا من مكانة اللغة الفرنسية في جامعاتهم حتى لا يكون هناك اقتصار تونسي وطني على نافذتها.

وفي مقابل هذا (أو موازاته) فإنهم يحتاجون لتقوية وجود اللغة الإنجليزية وأدبها ونشاطها ومصطلحها ومعجمها على حساب كل ما يقابل كل هذا فيما يتعلق باللغة الفرنسية، بل ويحتاجون إلى تقوية وجود اللغة الألمانية على حساب الفرنسية؛

وبخاصة أن أبناء الطبقات الجديدة من التونسيين والتونسيات وجدوا ويجدون في ألمانيا (والألمانيات) وفي بريطانيا (والبريطانيات) وفي إيطاليا (والإيطاليات) ملاذات لا تقل ترحيبا بهم عن الملاذ الفرنسي.

تتعطش المدرسة العلمية التونسية إلى أن تكتب بعض بحوثها في الاجتماع والتربية والتاريخ وعلم النفس والاقتصاد بلغة العلم في العالم (وهي الإنجليزية)، وأن تتواجد بهذه البحوث والاسهامات في السوق المعرفي الواسع الذي تديره أمريكا بلغتها «الأمريكية» أو «الإنجليزية».

هذا هو مذهبي وأجري على الله..

(٨)

ليس من مصلحة تونس أن تنتظر لنفسها مكانة متحققة في مجالات العلوم الاكاديمية من خلال نصوص الفرنسية والفرنسيين والكاتبين بالفرنسية فحسب، ولا من خلال الدورات الفرنسية ولا من خلال المؤتمرات الفرنسية فحسب، فإن ذلك لا يكفي طموحات تونس ولا تطلعات تونس، ولا كفاءات تونس، ولا قدرات تونس، ولا متطلبات تونس الحالية والمستقبلة.

ليس شرطًا أن تكون في تونس جامعة أمريكية كالتي في بيروت، ولم تخسر ولن تخسر تونس كثيرًا بغياب مثل هذه الجامعة، لكن جامعة تونس نفسها بحاجة إلى قدر أكبر من «التونسة» وقدر قليل من «النجلزة».

لست أجد مانعًا يمنعني من أن أنصح التوانسة بأن يلقوا على عاهل معظم أقسام الأدب الفرنسي في جامعاتهم مهمة إيجاد وترقية مراكز أو أقسام مهنية للترجمة المهنية تكون بمثابة الجسر الأول أو الأوفى أو الأقوى بين ثقافتين عربية وفرنسية، لكنني أريد لهم أن يضيفوا دراسة هم أقدر الناس على النجاح في تقديمها والتفوق في إتمامها، قد تسمى على سبيل المثال ليسانس اللغات الثلاث، ودبلوم اللغات الثلاث، وماجستير اللغات الثلاث، ودكتوراه اللغات الثلاث، والماجستير المتعمق في اللغات الثلاث، والأجرجاسيون في اللغات الثلاث.. وتتضمن هذه الدراسات أقدارًا متوازنة من العلم باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية في الوقت ذاته.

وتستقطب هذه الدراسات بعضًا من العرب المجاورين في الجزائر والمغرب وليبيا ولبنان وسوريا ومصر، كما تستقطب أيضًا الفرنسيين والبريطانيين والشعوب التي تحب أن تربط علاقاتها بالعربية وبهاتين اللغتين.

(٩)

ليست هذه الدراسة التي اقترحها إلا بابًا أدلف منه إلى طبيعة المدرسة العلمية الجادة التي يمكن لتونس أن تبنيها في وقت قصير، فهي تملك تراثا من العلم الأصيل والحقيقي لتدريسه والبناء عليه، وتملك تلك المدرسة العظيمة الرائعة التي لا تزال وستظل تُحارب سرًا لأنها ارتبطت بمجد الإسلام في عصور كثيرة.

وليس في الغرب الاستثماري مَنْ يرحب بمؤسسات ارتبطت بمجد الإسلام إلا على سبيل الأثر والذكرى والاحتفاء بالذكرى.

أما إذا ارتبط الأمر بالبحث والإحياء فإن أعراض الحساسيات «الجلدية، والباطنية، والنفسية» سرعان ما تظهر معبرة عن نفسها بألفاظ خادعة أو مخادعة أو مخاتلة من قبيل محاربة الإرهاب أو الجمود أو التطرف الفكري أو المرجعيات الميتافزيفية، أو فكر العصور الوسطى، وكل ما في هذه السلاسل اللفظية من اعتراف ضمني بطبيعتها الامبريالية المعبرة عن افتقار الرجل الأبيض للذكاء المعرفي القائم على التسامح والإيمان به، والمنطلق إلى البناء عليه، والتفوق في هذا البناء.

(١٠)

ومن حسن حظ الإنسانية أن تونس مجتمعًا وحضارة تبدو محصنة بوضوح ضد كل هذه الدعاوى المقولبة الجاهزة والمحفوظة على رفوف الثلاجات أو المخازن والمستودعات (في حالات أخرى).

ولهذا الحظ الحسن مردود أفضل منه في حياتنا الثقافية والفكرية، بجعل المراقبين لحركة الثقافة والتنوير يؤمنون ويوقنون ويزدادون يقينًا بأن ممارسة العلم والتعليم العالي والدرس الأكاديمي بصورة أوسع وعلى نطاق واسع في مناخ تونس الجميل (طبيعة وصناعة وتربية) هو الضمان الأكبر في مواجهة كل هذه الظنون.

(١١)

هل ننتقل الآن من هذا الا رتحال في الحالة إلى حالة أخرى من الرحلة في الدروب، وهي مرحلة تكفل لنا أن نتبين مدى الصواب فيما ذهبنا إليه من أمل أو حلم.

أحب أن أتجول معك جولة سريعة نعتمد فيها على النظر في عناوين الإنتاج الفكري المتاح في المكتبات الجامعية وفي مكتبات السوق على حد سواء، لنتأمل في طبيعة (وفي صناعة) ما تقدمه تونس اليوم من إسهامات جامعية وعلمية، وأنا أؤمل أن يسعفني الواقع بأمثلة دالة على صواب رؤيتي أو على ما أحب أن أقول.

وعلى سبيل المثل فإنك في ميداني الدرس الأدبي واللغوي، ستجد أن تونس حافلة بالنقد الاكاديمي المتّرع بالفن الأصيل والفهم الرائق لكل معاني الأدب، ولكن أين هذا النقد من معالجة أدب المشرق العربي السيار؟ أين هذا النقد من الصحافة اليومية في مصر وفي الشام وفي لندن؟

ستجد للإسهام التونسي مكانة محفوظة ولكنها أقل من أن تتوازى مع ما يشجعه، ومع ما يبذل فيه، ذلك إن الانشغال التونسي بأدب الفرنسيين أجدى وأيسر، فهو يصلك بمؤسسة أكبر وأنشط ويتيح لنا منافذ محترمة ومقدرة أوسع على الحياة وعلى المادة، على حين تقف ظروف العرب بأي نشاط تقوم به في الآداب العربية الحديثة عند حدود ربما لا تتجاوزها وما تمر بها إلا لتتركها وتبتعد عنها للأبد.

أقول لكل صديق تونسي، وكأني أخاطبه وحده: هل سيختلف الأمر لو أنك بدأت توجها جديدًا في دراسات أوسع وعلاقات أكثر انفتاحًا على الإنجليزية مع الفرنسية مع العربية من خلال مدرسة ذات روافد تمتد بامتداد رقعة المعمورة؟ (على نحو ما ذكرنا لتونا في شأن اللغات الثلاث).

هل يكلف هذا تونس شيئًا وهل يحتاج إلى تدبير موازنات جديدة؟

لا يحتاج مثل هذا التوجه هذا بالتأكيد لكنه يحتاج قدرًا كبيرًا من إحساس تونسي «سياسي» بالذات حتى لو كان هذا الإحساس في الحدود التي يطلق عليها المتخوفون منها تعبير أو وصف «المرضية» أو «الشوفونية» والغرور القومي.

هنا ربما ألجأ إلى الحكمة الطبية التي أكررها كثيرًا وهي أن: «الجرعة الفعالة هي الجرعة السامة، والجرعة السامة هي الجرعة الفعالة».

(١٢)

مع كل الحب الملح لتونس فإني أرى في تونس إبداعًا وتفوقًا، بل أرى بكل يقين ملامح بارزة لإبداع وتفوق في كل الفنون المحلية الأصيلة، وإن كان هذا التفوق لم يصل إلى الدرجة الكافية أو حتى إلى الدرجة «المُرضية» أو «المَرضية» التي تجعله يستحث التونسيين على أن يطلقوا أكاديمتهم الفنية في إطار مرجعي وأكاديمي يتفوق على هياكل أكاديمية الفنون المصرية في القاهرة، مع أن هذا الإطار يملك ما لا تملكه القاهرة من وجد وولع بالغناء والموسيقى والتلحين والتذهيب والتطريب.. لكنه يتواضع في الحديث عن نفسه لأنه يعتبر أن تونس بمساحتها وسكانها لا تذهب في هذه المقارنات إلى أي من مداها المشروع أو إلى أي من طموحها غير الممنوع.

قل مثل هذا الذي يحسه كل زائر لتونس وغنائها وطربها فيما يتعلق بفنها التشكيلي الذي يعبر عن نفسه تعبيرًا حاضرًا بكل قوة في كل ما تطرحه بلاطات السيراميك من فنون التصوير والزخرفة والخط العربي والرمز المعبر، حتى أنك تحس في بعض البيوت بأنك في متحف وليس في بيت ذي حياة عادية.

(١٣)

أما في الحياة الأكاديمية في كليات الآداب والعلوم الإنسانية، فإني أرى الأكاديميين التونسيين المحدثين وهم يسهمون بالفعل في علوم الاجتماع (بمفهومها الواسع) وبحوث الاجتماع إسهامًا حيًا وحيويًا يكاد (بنفسه) يؤكد للعابرين على أن ابن خلدون نفسه كان تونسيا عن حق وإنه أولى بتونس وأن تونس أولى به من أي قطر عربي آخر ممن ينازعونها فيه.

لكني لا أزال أرى هذا الإبداع التونسي كله يظل أو يفضل أن يظل مرتبطًا بالمدرسة الفرنسية التي لم تعطه حقه، وكيف تعطيه هذا الحق، الذي لا بد أن يأتي على حساب إبداع الفرنسيين أنفسهم.. وهي (أي المدرسة الفرنسية أو الحياة الأكاديمية الفرنسية)

قد ترحب بنشره وبتوزيعه وبالثناء المستحق عليه، لكنها لن تقدمه أبدًا على أنه منتهى الأمل ولا منتهى الطلب في الدراسات الاجتماعية الفرنسية.

(١٤)

أسمع تراث الفقه المالكي كله وهو يكاد ينادي تونس أن تعود إلى العناية به والحدب عليه، عناية وحدبًا كفيلين بأن تجعلا الزيتونة معهد الفكر المالكي الأول أو الأوفى أو الأوسع، وتجعل المكتبة التونسية أو المكتبة الزيتونية منارته الأولى في العالم تجتمع فيها مخطوطاته وإسهاماته وآثاره، بل ويجتمع فيها علماؤه إلى درجة أن تكون هناك كراسي للفقهاء المالكيين الأزهريين يتعاقبون عليها عامًا بعد عامًا، وتكون إضافاتهم فيه منسوبة إلى المرحلة الزيتونية من حياتهم.

أتوقع لمثل هذا المعهد أن يكون أفضل من غيره حظًا بحكم المناخ والعراقة، وبحكم الانفتاح والإضافة المعبرة عن الصحوة.

أرى دورًا أعرض وأوسع في الأفق الإنساني الرحب الممتد في الماضي والحاضر والمستقبل للقيروان، وأرى القيروان ومدينتها ومحيطها وجوها بمثابة بيئة علمية مواتية لا تقل مكانة ولا وعدًا ولا تبشيرًا عن مكانة بوسطن في بدايات الساحل الشرقي في الولايات المتحدة، مع الفارق في الزمان والمجال.

وأرى في كل هذه الآفاق ميادين استثمار علمي وأكاديمي حقيقي تتناسب مع سلطة الشعب أو السلطة الجديدة في تونس.. السلطة التي أوجدها الشعب العظيم بنفسه بعيدًا عن تدخلات الغرب وتواءمات الغرب، وتقسيمات الغرب، وإن لم تخل من لمحات من هذا كله، ومن فساد وإفساد الضمير العربي، ومن بقايا مراحل الشمولية التي تستحث الناس على الاقتناع بها بدرجة أو بأخرى، وبعيدًا عن النفوذ الأمريكي والشر الأمريكي الحالي.

(١٥)

زرت تونس في أعوام ١٩٩١ و١٩٩٩ و٢٠٠٢ ووجدتني في كل مرة ازداد شعورًا بالاختناق الخفيف الذي يرتبط بحضور الأمن المعقول، وهو حضور كفيل بانكماش

العلم والإبداع، وإن لم يكن قادرًا على خنق روتينات العمل العلمي والإبداعي، لكنه بالطبع لن يسمح بالجديد الذي يبدو مهددًا للاستقرار، حتى وإن لم يهدده.

كنت حريصًا على أن استقصي وأن أكوّن رؤيتي الخاصة المتأثرة بكل ما يفتعل في نفسي من الأمل وما يخالجها من المنى، وكنت أدخل في مناقشات طويلة وعميقة، وكان صدري، على غير عادته، يتسع لسماع كثير من الحديث الجارح لكثير مما أعتقده، ومما أعتقد في صلاحيته، لكني مع هذا كله كنت أصل إلى نتائج لم أصل لمثلها عن تونس.

كنت أرى في ازدياد الحجاب بين التونسيات تعبيرًا عن رغبة صادقة من التونسيات في الحفاظ على الهوية في ظل حالة الضياع التي كان يفرضها المناخ الأمني الذي يطلب من الناس البعد عن السياسة، وعن كل ما يؤدي إلى السياسة.. وهو لا يطلب هذا صراحة، ولكنه يصنف الناس تبعًا للإيمانية والتدين، فيجعل هؤلاء وأولئك مصدر ريبة، كما يظهر للناس امتعاضه من كل صاحب رأى مخالف أو معارض، واجتهاده الخبيث المتمثل في إضعافه من كل حركة لها مطالب، أيًّا كانت هذه المطالب.

هكذا كانت المرأة التونسية بذكاء تلجأ للحجاب لتعلن عن انتماء أصيل لا يمكن العقاب عليه، لأنها تعرف أن حركيتها السياسية ستكون مصدر عقاب، وهكذا فقد كان لا بد من حدود دنيا تعلن بكل وضوح للساسة والقابضين على زمام الأمور أن تونس إسلامية.. قبلوا هذا أم رفضوه، حاربوه أو هادنوه.. وفضلًا عن هذا فإن هذه المرأة التي حققت ذاتها تجد في الحجاب تحقيقًا جديدًا للذات.

(١٦)

في الضفة الأخرى من النهر رأيت التونسيين في مطلع الألفية الثالثة وهم يتحدثون حديث المضطر عن الازدهار السياحي وعن أنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بنجاح السيطرة الأمنية إلى حد كبير، وبالطبع فإنهم لم يكونوا يقولون إنها السيطرة الأمنية، وإنما كانوا يصفونها بأنها «الأمن»، مع أن الأمن كان مصنوعًا بوضوح ولم يكن نتاجًا طبيعيًا لتوازنات مجتمعية أصلية، فعرفت أو أدركت أنهم يعانون من الرقابة الظاهرة والخفية.

رأيت التونسيين البارزين يتحدثون في مآدب العشاء (أو الأفطار الرمضاني) عن قضايا دقيقة كالأدب القديم والفن الأصيل، بدلًا من أن يتحدثوا في التاريخ والسياسة، فأدركت أن التفاعل الحي المتشابك مع الأحداث أصبح في ظل حكم الرئيس بن علي أمرًا غير مضمون العواقب.

رأيت الاعتزاز التونسي بالإسهام الوطني المبكر في تاريخ الديمقراطية الشرقية (أي غير الغربية) يتأخر إلى ما بعد الحديث عن فعالية التعاون واللجان المشتركة والميزان التجاري، فعرفت أن تونس تعيش مضطرة مرحلة الإنسان الذي يعيش ويأكل، وأنها من الممكن أن تنحدر انحدارًا سلسًا يرتبه ذلك الأمن القابض على الزمام، إلى مرحلة الإنسان الذي يعيش ليأكل.

(١٧)

لأسباب عديدة يتصل بعضها بالزمالات والصداقات التي كونتها من خروجي المبكر إلى المجتمعات الخارجية منذ بداية الثمانينيات (بل أواخر السبعينيات) فقد أصبحت أتابع تونس عن كثب وبشغف، وهي تحاول أن تتصالح مع ماض قريب واثق، ومع حاضر واعد، وكانت تونس تنجح في كثير من اللحظات، لكنها كانت تتوقف بالنجاح عند الحد الذي لا يجلب لها ريادة ولا زعامة، ولم يكن العامل المفرمل لتونس من داخلها بقدر ما كان من خارجها.

ولأكون صريحًا أقول إن تونس كانت تعاني مشكلات الهوية معاناة ظاهرية وغير حقيقية بل وغير متصورة، في ظل وجود نموذج عقلي مضطرب على رأس السلطة في شرقيها يعتبرها، في قرارة نفسه المختلجة بكل الأمراض القاتلة للنبوغ والنمو، مملكة مجاورة صغيرة، على الرغم من تفوقها الساحق في كل شيء.

لم يجد حرجًا هذا الجار الشرقي: معمر القذافي زعيم الجماهيرية، مع الاندفاع المفاجئ للربيع العربي أن يصرح برأيه في أن التوانسة أخطاؤا، مع أن الرئيس التونسي نفسه كان قد اعترف بأنه هو الذي أخطأ.

بدأت أعلم كثيرًا عن إفساد القذافي للنخبة الحاكمة في تونس، لكني لم أتصور

أن إفساده وصل إلى الحدود التي عرفت (أنا وغيري) تفصيلاتها ومآسيها بعد ثورات الربيع.

(١٨)

كنت أرى الاستثمارات الكويتية بارزة في فندق تونس الشهير القائم في وسطها دليلًا على وجود المال الكويتي في تونس، لكنه كان وجودًا متعقلًا عاقلًا، ولنقل إنه كان معقولًا وأدنى من المعقول، لم يكلف نفسه أن يندفع في الهيام بتونس، ولو أنه فعل لأفاد واستفاد، لكن الاستثمار الكويتي كما هو معروف حذر ومتردد.

كنت معجبًا إلى حدود قصوى بالإمكانات السياحية الذكية في تونس مدينة وجمهورية، عاصمة ووطنًا، فقد زرت سوسة والقيروان وزرت غير سوسة والقيروان، وتعاملت مع أكثر من عشرين موقعًا من مواقع السياحة النشطة واختلطت بها اختلاطًا واسعًا، حيث كان كتفي إلى كتف الأوربيين ومائدتي إلى موائد الأوربيين والأمريكيين، لكني وجدت معظم هذه السياحة سياحة برامج، فالأتوبيس (أو الأتوبيسات المترافقة معًا) إذا تحرك خلا المطعم كله إلا من مجموعتنا الصغيرة بسيارتنا.

ظل هذا الطابع المعتمد على البرامج السياحية يؤرقني في مستقبل كثير من مواقع السياحة التونسية، على نحو ما يؤرقني إذا ما تعلق الأمر بشرم الشيخ والغردقة وما إلى هذه المنتجعات من المواقع الجديدة التي تعتمد على صناعة السياحة بأكثر مما تعتمد على السياحة نفسها، وليس هذا عيبًا لكن استمراره هو العيب.

(١٩)

رأيت تونس تعتمد على صناعة السياحة اعتمادًا حميدًا، لكني كنت أتمنى لتونس أن تعتمد السياحة على نفسها أيضًا.

كنت ولا أزال أتمنى لتونس ولمخططي تونس ولأصحاب السياحة في تونس أن يسارعوا بأن يجعلوا من تونس ما كانته في ماضٍ قريب من أن تكون قريبة كل القرب مما نعرفه في الإسكندرية وباريس من قدرة على توفير كل عناصر الجذب لمناخ السياحة الفردية المنطلقة التي تتوازى مع سياحة البرامج والمجموعات والتعاقدات والبورصات.

لكني كنت في الوقت نفسه أرى ثِقل ما تمثله الاستثمارات الجديدة المعتمدة على فكرة البرامج، وكنت أرى أن وقت البرامج مضغوط إلى حد لا يمكن أن يتهيأ فيه لحرية الاختيار، ولا لرحابة السياحة بمعناها الإنساني (وليس الصناعي) الأصيل.

(٢٠)

ومع هذا كله فقد كنت ولا أزال مبهورًا بما كنت أجده من التهذيب التونسي الشهير أينما حللت أو تحركت، وكنت أسعد بهذا التهذيب واسترجعه من لحظة لأخرى، فأحس فيه بالصدق وحب الوطن وحب الإنسانية نفسها.. ولم يخالجني الشك لحظة من اللحظات في أنني أواجه تمثيلًا أو تكلفًا أو تدريبًا ينتهي أمره مع نهاية غرضه.

وإذا قلت لك إن نهر الرقة التونسية أمر طبيعي لا يحتمل إنكارًا ولا جدلًا، فلست أبالغ. وإذا قلت لك إن التونسيين يسعدون بالفعل بإسعادهم لضيوفهم، فإني لا أعدو الحقيقة ولا أجاملها، وإذا قلت لك إن الابتسامات التونسية ساحرة فإني أبالغ في وصف قيمة السحر وجمال السحر، فإن الابتسامة التونسية الصادقة أرقى كثيرًا من السحر ومن أثر السحر.

التونسيون قوم مستأنِسون، مستأنَسون، محبون، وباعثون على الحب، مرحبون، ومجيدون للترحاب، احتوائيون وقادرون على الاحتواء، منبسطون، وممارسون للبسط بكل ما يعنيه البسط من خير وانشراح.

(٢١)

في زيارتي لتونس ١٩٩١ كان المؤتمر الطبي قد ألقى على عاتقنا أو ترك لنا حرية تدبير غداءنا، أو فلنقل بعبارة أخرى أنه تركنا أحرارًا في اختيار غدائنا على نفقتنا، رغم أنه تقاضى منا اشتراكًا ضمنيًا للمؤتمر، وكان في وسعنا بالطبع أن نتناول الغداء في الفندق، وأمثالي بخبراتهم (السلبية قبل الإيجابية) لا يحبون أكل الفنادق إذا كانت هناك بالقرب منها مطاعم مستقلة كما في العواصم الكبرى.

وسمعنا أن في تونس أكثر من مطعم من هذه المطاعم، وحدثنا أحد الأساتذة الذين كانوا في تونس من قريب عن مطعم بالغ التميز في وسط المدينة، قريب من

الفندق لكن الذهاب إليه على الأقدام يستغرق وقتًا طويلًا، والذهاب إليه بالسيارة لا يستغرق وقتًا طويلًا ولا يمر بتقاطعات وإشارات وما إلى ذلك من عيوب وسط البلد.

وقررنا أستاذي الدكتور محمد عبد اللطيف وأنا أن نذهب إلى ذلك المطعم، وإذا بنا بالفعل أمام مطعم في غاية الرقي والفخامة، كما أنه في غاية التنظيم والاتقان، والاختيار متاح بين خمس وجبات كاملة (ولتكن ذات أرقام ١، ٢، ٣، ٤، ٥) والوجبة تشمل معها كل ما يلزمها.

وهكذا كانت تمضي أمور لوجستيات المطعم في سرعة بالغة مع طعام شهي خارج لتوه من الفرن أو من النار، والخدمة مثالية في تقديم كل شيء لك في التو واللحظة، وتناول الطعام في هذا المطعم قد لا يمتد لأكثر من نصف ساعة لأنه يراعي أن من يأتون إليه من طبقة المديرين في مؤسسات (تجارية أو مالية) تعمل طوال اليوم ويعمل مديروها طوال اليوم ويسكنون في الضواحي، ومن ثم فإنه يساعد على صناعة أو خلق بيئة العمل (الغربية) المناسبة لنمط رجال الأعمال في مجتمع العمل المكثف الذي يسود مجتمعات المال والأعمال اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن كل الذين رأيناهم في ذلك المطعم كانوا يبدون بالفعل بالزي وبالأداء وبالسن من هذه الطبقة من المديرين التنفيذين.

(٢٢)

لم تكن حمى التليفونات المحمولة قد ظهرت في ذلك الحين، وهكذا جاء الجميع في جماعات صغيرة أو كبيرة في أوقاتهم المحددة، وجلسوا إلى مناضد محجوزة سلفًا، يعرفون أرقامها أو يحجزونها بصفة شبه مستديمة، بينما هناك مناضد أخرى لأمثالنا من العابرين أو ضيوفهم الزائرين.

كان مخصصًا لنا في برنامج المؤتمر ساعتين ونصف لهذا الغداء، وبالتالي فقد أتيح لنا أن نجلس لنتأمل عناصر هذه المنظومة السياحية الجميلة في هدوء، فلم نكن مضطرين للمغادرة على عجل، وهكذا فهمنا كيف يمكن لمدينة مصرية مثل القاهرة أو الزقازيق أو الإسكندرية أن تساعد جمهورًا من المنهمكين في العمل بعمق نظر وببعد نظر كفيلين بأن تتخلق البيئة المساعدة على الإنجاز في أيام العمل الخمسة.

بقيت المفاجأة السارة في هذه القصة، وهي أن هذا المطعم كان يقدم وجباته لما يقرب من ثلاثمائة (قابلين لزيادة معقولة) وليس لعشرات من الزبائن، وأن هذا كله كان يتم في سلاسة لا تجد معها طبقًا ينكسر أو كوبًا ينشرخ، وكل هذا في حدود المعقول مع رقيّ الأداء وسرعة تلبية الطلبات.

وهكذا فهمنا بعدًا جديدًا كان ـ وربما لا يزال ـ غائبًا عنا في القاهرة، التي يفخر بعض مديريها الكبار بأنهم حريصون على أن يأكلوا من طعام بيوتهم ساندويتشات سريعة يصطحبونها معهم في الصباح كل يوم.

(٢٣)

وإذا كنا في محيط الحديث عن الطعام التونسي فلا بد لنا من أن ندخل البيوت التونسية، ولا بد لنا من أن نعترف بجمال المطبخ التونسي وتميزه، وهو جمال ينبع من أصوليته وحرصه على ذاته دون تقليد للأطباق الأوربية المتوقع تأثره بها.

وقد كان من حظنا أن نُدعى إلى وجبات تقوم على معالجة لحم الضأن معالجة تضمن الاحتفاظ بما فيه من خصوصية، وتتخلص مما فيه من شبهة أذى للقلب أو الشرايين، فكأن هذا «العلوش التونسي» هو طعام العرب الذي ينبغي أن يأخذ مكانه في رأس القائمة العربية للطعام الحديث أو المحدث في السنوات القادمة، لولا أن أهل تونس لا يجيدون ما يجيده أهل لبنان من التسويق لأنفسهم ولطعامهم ولتجارتهم، أو قل إنهم يجيدون دون مبالغة ودون ضغط.

(٢٤)

ولأحدثك الآن عن العشاء الرئيسي في ذلك المؤتمر، ففيه طرفة لطيفة..

فقد كان من حظنا أن نجلس على موائد فخمة لكنها ليست مستورة الجوانب، على نحو ما نفعل الأن في مصر بالمفارش الكبيرة التي تدارى كل عيوب الموائد المستديرة المفترض فخامتها.

ونحن نلاحظ أن الدور الشهيرة التي أصبحت تقدم الطعام والحفلات الآن في مصر أصبحت تحرص كل الحرص على هذا الستر للمنضدة ولجوانبها بهذه

المفارش البيضاء، التي تحولت مع الزمن ومع الاستسهال (أو الإهمال) المصري، الذي يصل بكل شيء إلى درجة معقولة من درجات التدني، حتى إنه حول المفارش إلى ستائر فحسب، وهي تذكرك دون أن تقصد بالأسره البيضاء التي تشاءم منها أمل دنقل في قصيدته حين كان يصارع المرض قبل موته.

كنا في ذلك اليوم في فندق عظيم من فنادق تونس وقد أعدوا هذه المناضد على النحو الأوربي (أو المصري القديم) الجميل بعيدًا عن التصنعات والافتعالات الحديثة في موائد حفلات المصريين، وكان الحفل يمتد لحوالي أربع ساعات لأنه سيشمل كلمات رسمية يلقيها رئيس الوزراء والوزير والنقيب والعميد ورئيس المؤتمر... إلخ، وسيشمل أيضًا توزيع شهادات وجوائز، وسيشمل تقديم عرض فني، كما يشمل عشاء رسميًا.

(٢٥)

أهبط معك ببصري إلى مواضع الأقدام لتكتشف معي أنه كان على أعضاء المؤتمر وضيوفه من أصحاب الأحذية الجديدة أن يدبروا أمورهم في تحرير أقدامهم من هذه الأحذية، على نحو ما تشير نصوص «الليلة الكبيرة» لصلاح جاهين مع تحويرها إلى ما يناسب الحفل.

وفي مثل هذه الأحوال يتحرك أساتذة الطب والأطباء في إطار يسمح لهم أن يظهروا وهم يجلسون هذه الجلسات الرسمية وكأنهم يرتدونها، مستخدمين في ذلك مهاراتهم في لبس الأحذية أو الأحذية المعقمة، حتى لا تنقلب الأمور إلى فوضى في مثل هذا البروتوكول المنضبط.

ولأسباب أخوية بحتة، وهذا هو أضبط تعبير يمكن أن يصف ما حدث، فقد جاء المقعد الذي اختاره رئيس الوزراء لنفسه في المنضدة الرئيسية في مواجهة المنضدة كان فيها أستاذان من ذوي الأحذية المحكمة التي لا بد من إراحة القدم منها.

(٢٦)

أتوقف لأشير أن رئيس الوزراء في ذلك الوقت كان طبيبًا هو الدكتور حامد

القروي بينما لم يكن وزير الصحة طبيبًا، وهو أمر معروف في البلاد كلها إلا في مصر ومن اتبع سنتها، وفي تبرير هذا يقال إنه لم إذا ينل الأطباء وزارة الصحة فقد لا ينالون وزارة أبدًا، في ظل تهمشيهم في سياسات الدول النامية الحريصة كل الحرص على بقاء المرض لا على علاجه.

وهكذا كان على رئيس الوزراء أن يدافع عن زملائه (الذين لا يعرفهم) من آثار بدايات الضيق أو الاستهجان أمام وزير الصحة، الذي هو رجل بروتوكول وقد أدهشه أن يتصرف أساتذة طب كبار على هذا النحو.

(٢٧)

يجدر بي هنا أن أشير إلى واحد من مظاهر رقة التونسيين وتهذيبهم في سلوكهم، ذلك أنه قبل أن تأتي المواكب المتتابعة من المسئولين ومصاحبيهم، فقد اختار رئيس الوزراء الجانب الأيمن من المنضدة الرئيسية بدلًا من الموقع الأوسط ومعه بالتبعية وزير الصحة، تاركين وسط المنضدة الرئيسية لمندوب الرياسة وللعلماء الضيوف ولرئاسات إتحاد الأطباء وتجمع الأطباء التونسيين.

أكاد أجزم أن سلوكيات الرسميين وغير الرسميين تدلنا مرة بعد أخرى على أن التهذيب طبع أصيل في المجتمع التونسي لا يمكن تجاوزه ولا القفز عليه، فقد قضيت كل الأيام في رحلات تونس متمتعًا على الدوام بهدوء التعامل مع كل من أتيح لي التعامل معه في الشارع والسوق، وفي المحلات والجمعيات، وفي الفنادق والمطار، وفي المقاهي والمنتديات، وهو تهذيب غير متكلف وغير مكلف أمنيًا.

(٢٨)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد كان المجتمع التونسي في ذلك الوقت قد فاق المجتمع المصري في عدة محاور من محاور الحضارة الحديثة بمفهومها الواسع الذي يشمل الإنسان والمكان والنظام والأمان:

- فقد كانت في تونس قاضيات ولم يكن في مصر أي مؤشر نحو الاتجاه في هذا السبيل عن قريب، فلما اتجهت مصر إلى هذه «المكرمة»، ظهر الأمر في مصر وكأنه نوع من أنواع الاقتضاء السياسي لا المجتمعي ولا الحضاري.

- كانت نسبة عالية من قيادات البنك المركزي التونسي من سيدات اقتصاديات قديرات لم يكن في مصر مَنْ تقابلهن في الكفاءة، في ظل غياب القيادات المصرفية المهنية، وانشغال مصر بترفيع قيادات شبه سياسية للمواقع المصرفية والمهنية على وجه العموم.
- كانت الرقابة الحسابية على أعمال الحكومة تتمتع بوضع أفضل من وضعها في مصر بعيدًا عن كل الضجيج الذي كانت الجماهير تجده وهو يلازم صدور تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات من آن لآخر.
- كان أداء الطبيبات الاخصائيات والاستشاريات على وجه العموم أفضل بكثير مما هو متاح في مصر، وذلك بسبب سيادة نظم تأمينية وتعاقدية أكثر تقدمًا من تلك الموجودة في مصر، ويكفي أن أشير إلى أن العامل الحاكم في هذه الممارسة لم يكن هو ما نعرفه (في مصر وغيرها) من سيادة فكر العلاقات العامة والتسويق السياسي ونفوذ العائلات الطبية... إلخ.

(٢٩)

أمضي بك إلى الشارع الرئيسي في وسط تونس العاصمة، وهو الشارع الذي يضم المسرح التونسي نفسه، ولا يزال حريصًا على أن يحتفظ من الشانزلزيه بكثير من ملامح العناية والتهذيب والحرص على عدم ارتفاع المباني على جانبيه.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الشارع عُرف في وقت من الأوقات بشارع مصطفى النحاس باشا، تقديرًا من تونس للمساعدات الحقيقية التي قدمتها مصر وحكومة الوفد للحركة الوطنية التونسية طيلة الكفاح الوطني الجاد، مما أدى إلى تسريع دعم هذه الحركة في الحصول على الاستقلال.

وقد ظل الرئيس بورقيبه ذاكرًا لهذا الفضل للنحاس والوفد، حتى إنه قَبِل دفن جثمان الصحفي المصري الكبير محمود أبو الفتح، حين تعنت عبد الناصر في دفنه في مصر.

أذكر أن هذا الشارع كان، وأظنه لا يزال، حريصًا على أن يبقى بعيدًا بدرجة كافية عن حمى الحداثة وسعارها اليومي، وموحيًا لزائر تونس العابر بالاطمئنان والهدوء والسكينة، على الرغم من أنه حافل بالأمواج المتحركة ليل نهار.

ويزداد شعورك بالتقدير لهذا الشارع الجاد، والحريّ بهم أن يسمونه «الجادة»، ويقود هذا الشارع الزائر إلى ما يسمى تونس القديمة وسوقها الفولكلوري الجميل في هدوء واحترام وسلام وأمان.

(٣٠)

هذا السوق الجميل الذي يضم كل ما يمكن لك أن تتخيله من مبيعات أو مشتروات، هو تونس القديمة، على حد تعبير هؤلاء التوانسة المعتزين بالماضي في غير تصلب، والفخورين في غير تعنت.

وتونس القديمة هذه شيء جميل يجمع الأصالة والرقي ويجمع أيضًا الحنو على السائح والترحيب به، ولست أحب أن أكرر آلام المصريين (مما صارت إليه أسواقهم القديمة)، ولا أن أذكرهم بأن هذا السوق الجميل لا يتجهم للسائح ولا يتهجم عليه، وإنما هو يرحب به من كل قلبه وبكل قلبه.

وتتأمل فيما يعرضه هذه السوق، فتجد عناية كبيرة من أهله في أن يضفوا عليه طابع الوطنية أو طابع الذات الواثقة، بأن يقدموا لك كل شيء في إطار ثقافي..

- فهذه هي الفضة العربية مع حديث متزن وواع عن نقوشها ونفاستها وقيمتها وفنها.
- وهذه هي الحناء مع حديث آخر عن نقاوتها وأصالتها وفائدتها.
- وهذا هو الخوص المصنع يتبدى بكل شموخ في منتجات متعددة تعبر عن البساطة والأصالة والبعد عن سعار الدنيا.
- وهذا هو الخيط المغزول يقدم لك نفسه في مصنوعات تقليدية تحظى بالإعجاب وتحتفظ لك بذكرى تونس التي تريد أن تتذكرها ضمن حديثك عن رحلاتك؛ إن كنت من هواة الرحلات... إلخ.

(٣١)

وفي هذا السوق فإن الذين يحبون الشراء من أجل الشراء يجدون ما يعجبهم، والذين يعجبهم أسلوب البائعين يجدون أيضًا ما يذكرهم بهذه المدينة الجميلة

الوديعة الوادعة المقبلة على الحياة والمرحبة بزوارها، والمقدرة لمصر وللمصريين وللعرب والعروبة.

وفي كل الأحوال فإنك لا تحس بالوقت الثقيل في سوق تونس القديمة، ولا تحس بالابتزاز، كما أنك لا تحس بالقلق من مضي الوقت ولا بالخوف من نشالين، ولا بالضيق من الإلحاح، ولا بالملل من تكرار المعروض، وإنما أنت في هذا السوق كما أنت في كل تونس معزز مكرم محفوف بحب حقيقي يستأهل أهله ما هو أكثر من الحب الحقيقي.

(٣٢)

هل تحب أن تعود إلى تونس؟

هذا هو السؤال التقليدي الذي ينتبه إليه كل معني بأمر السياحة وتنشيطها، واستقدام الجماهير من «الآخرين» لأجلها.

والحق أنك لا تستطيع أن تنكر أنك تتمنى لو عدت إلى تونس، ولا تستطيع أن تنكر أنك تركت تونس وأنت متألم لتركها هكذا فجأة في قرارة نفسك، وأنك كنت تود لو طالت الزيارة.

ومع هذا فإن المنتجعات التونسية في العاصمة تبدو وكأنها مجتمع منعزل عن العاصمة، فقد يمر الأسبوع بأكمله على نزيل هذه المنتجعات دون أن يفارقها إلى وسط البلد أو الأسواق أو إلى المدينة القديمة أو حتى إلى الأحياء السكنية الأكثر عمرانًا.

لكنك مع هذا تستطيع أن تقدر حاجة أولئك الذين قدموا إلى هذه المنتجعات إلى هذا الانعزال الذي تيسره لهم مناطق تونسية تبدو وكأنها تأسست لهذا الغرض وستظل تعيش عليه.

وسواء كنت في وسط المدينة أو في ضواحيها، فأنت تعيش الجمال الذي تحب أن تعود إليه.

الفصل الثالث

جدة ١٩٨٩

(١)

بعض هذه الأوراق القديمة عن جدة تتحدث عن رحلة قمت بها في ١٩٨٩، كان عليّ وقتها أن أقرر أن أقبل (أو ألا أقبل) فرصة عمل ممتازة في مستشفى عالمي جديد أنشئ لتوه، فآثرت أن أرى المدينة بتوسع وأن أعيش فيها على نفقتي الشخصية أسبوعًا (أو ١٠ أيام) حرًا.

ولست أدري إذا كانت أوراقي التي سجلتها قد وشت بوضوح بأسباب قراري بالاعتذار عن فرصة العمل، أم أن هذه الأوراق قد مضت بعيدًا عن الطب وقريبًا من الحضارة والعمران.

على كل الأحوال فمن حظ الكاتب أن يجد نصًا كتبه منذ ربع قرن ولم ينشره من ناحية ولم يضيعه من الناحية الأخرى، وأظن أن هذا قد يكون من حظ القارئ المحب أيضًا.

(٢)

السعودية حبيبة إلى كل قلب مصري، لأنها أولًا بلاد الحجاز، وعقيدة المصريين أنه إذا كان هناك عشرة بالمائة من المصريين قد سافروا خارج مصر فإن ثمانية أعشار هؤلاء قد سافروا إلى السعودية، وإن كثيرًا من الذين تكررت سفرياتهم إلى خارج مصر، حصروا هذا التكرار في الحج والعمرة فقط.

هكذا يصبح الحديث عن رحلة إلى بلاد الحجاز هو القاسم المشترك بين أي من

المصريين ممن يفتحون حوارًا حول مشاهداتهم خارج مصر أو انطباعاتهم عن البيئة المدنية والمعمارية من طرق وكباري ومباني ومرافق.

وهكذا نجد أيضًا ما يرافق مثل هذا الحوار من إعجاب أو انتقاد أو ثناء، ومن مقارنة بالماضي القريب والماضي الذي يظنه أصحابه بعيدًا، كأن يقول لك المتحدث: إنه في زياراته الأولى للحجاز منذ ثلاثين عامًا أو أربعين عامًا، ثم يبدأ في سرد ما يبدو وكأنه مفارقات حقيقية تختلف كل الاختلاف عما تراه اليوم.

(٣)

لا أذهب إلى أرض الحجاز إلا وينتابني شعور مؤلم بأنني أذهب في الطائرة، بينما الاتصال الأرضي متاح عبر شبه جزيرة سيناء من جنوبها ثم العقبة فالأراضي السعودية، فإذا أردنا السرعة فإن جسرًا أو نفقًا بين الدولتين (عبر نقطة ضيقة من النقاط المتعددة في مسار البحر الأحمر) كفيل بأن يربط أرض الحجاز بأفريقيا كلها.

أتألم من الوضع الذي أصبحنا فيه، وأرى أصحاب الرحلات السابقة في القرن الماضية وهم يسخرون منا ونحن في عصر الهندسة بينما لا نفيد منها شيئًا.

(٤)

أحب في السطور التالية أن أبدد بعض المخاوف الذهنية التي يرى أصحابها أنها تحول بين الأمل وبين تحقيق الأمل في جسر أو نفق عبر البحر الأحمر بين السعودية ومصر:

• يقول بعض هؤلاء بأن ضبط أمور الجوازات والهجرة صعب جدًّا عبر جسر تعبر عليه السيارات بما فيها من حمولة قابلة لأن يُهرّب من خلالها الآدميون، وردي بسيط؛ وهو أن هذا الجسر أو النفق يتيح ضبط الحدود وليس انفلاتها، فالمسافة العرضية التي يعبر من خلالها البشر مساحات محددة إذا ما قورنت بالحدود المفتوحة الممتدة، على نحو ما هي الحدود المفتوحة بين مصر وشمال السودان، أو بين تركيا وأرمينيا، أو بين تركيا وجورجيا.

• يقول بعض هؤلاء بأن التكدس على هذه المنافذ أمر محتمل بكل ما يعنيه من صعوبات إنسانية، ولن أكلف نفسي تلخيص ما يمكن فعله لتجنب كل هذا مكتفيًا بالإشارة إلي أن كل دول أوربا حتى من قبل اتفاقيات شنجن وضعت من التصميمات الهندسية واللوجستيات المعلوماتية والمدنية ما كان ولا يزال كفيلًا بمراقبة وتوظيف كل شيء على نحو منضبط تمامًا. ويكفي أن تنظر إلى القطار الذي يتحرك من لندن إلى باريس، فتتم الشرطة الفرنسية إجراءات الدخول وهو لا يزال في لندن، كما تتم الشرطة البريطانية إجراءاتها وهو لا يزال في باريس.

• يقول البعض إن خوف دولة (على هذه الناحية) من المطامع العسكرية لدولة أخرى (على الناحية الأخرى) قد يكون مبررًا قويًا للحفاظ على حالة من الفصل والعزل، وهذا القول في حقيقته ليس إلا هراء سواء فيما يتعلق بفكرة الغزو أو ما يتعلق بالعجز عن الدفاع، لكن هذا الهراء قابل لأن يشغل حيزًا من تفكير مسئول هنا أو مسئول هناك، وفي مثل هذه الحالة من الخوف المبرر فإن الخبرات العالمية وتنمية الثقة بالقدرة على الضبط والانضباط كفيلين بالقضاء على المخاوف بل وعلى الاحتمالات.

(٥)

أعود للحديث عن شعوري بالتأذي من الاعتماد المكلف على حركة الطيران الكثيفة التي تشغل الأجواء بما لا ينبغي أن تشغله، وما يصحب هذا من إهدار الموارد الذكية دون أدنى مبرر لهذا الإهدار، وفي المقابل فإنها تحرم المسلم المصري أو القادم عبر مصر من أن يستمتع بجمال الطريق وتاريخ الطريق، وأهل الطريق في غرب القناة وشرقها، ثم في جزيرة طور سيناء ثم في شمال أرض الحجاز.

أتذكر نصوص كتب الرحلات التي سجلت رحلات أصحابها إلى بيت الله الحرام، وما حفلت به من التفصيلات الجميلة عبر التاريخ الممتد، مما وثق لنا هذا التاريخ الحي بما فيه من تاريخ سياسي واجتماعي وحضاري، وبما انتهى إليه من تجديد وتطوير في وقت من الأوقات، ثم أتأمل فيما يمكن أن يكتبه مَنْ ذهب للحج في هذا العام، فلا أجد الفرصة أمامه متاحة إلا لذكريات من قبيل رقم الكرسي في الطائرة، ورقم البوابة في المطار، وثمن التذكرة بالجنيه أو بالريال.

وقد يقص عليك الذاهب للعمرة أو الحج أنه أخذ في مساومة السائق في مطار جدة حول الأجر الذي يتقاضاه نظير نقله من مطار جدة إلى الفندق الذي تم الحجز له فيه في مكة، لكنه في الأغلب لن يقص مثل هذا الموقف لأنه جاء في رحلة تم ترتيب جدولها ومسكنها من قبل، وجدولها يشمل عناصر محددة يعرفها كل حاج ومعتمر، بل كل مسلم ملم بأحكام دينه وعباداته.

يعتريني الإشفاق على نفسي كلما فكرت في هذا الأمر، وهل يمتد بي العمر لأرى مثل هذا الجسر وأعبر عليه أم لا؟

(٦)

سألوني في السعودية عما أتمناه لها، وتكرر السؤال من مستويات مختلفة، وبخاصة من مدراء المستشفيات والخدمات الطبية والمسئولين الكبار الذين يتصادف وجودهم في المستشفيات للزيارة.

كان المصريين بما عُرف عنهم من اعتزاز بمن يعتقدونه رمزًا يجيدون (بل ويفرطون في) تقديم شخصي المتواضع، ومن ثم كانت النظرة السعودية سرعان ما تتعدى التقدير والاحترام إلى الحوار والتوظيف والتدوير، وكانت هذه الآلية تأخذ حظها بطريقة أوتوماتية.

لم أكن أجيب على هذا السؤال بما في هذا الفصل كله، وإنما كنت أبدأ الإجابة وأتفرع مع المناقشات الجانبية حتى ينتهي الوقت قبل أن تنتهي الإجابة.

وكان السائلون والمحاورون في العادة أكثر جدية مما أتصور.

(٧)

كان الأفق الأول الذي أراه في مستقبل السعودية يتمثل في رؤيتي المشاعر المقدسة كلها بعيون تتمنى نمطًا رائعًا من الانسيابية يفيد من تجارب العالم الغربي في تنظيم مواقع لا تبلغ قداستها ولا أهميتها عشر معشار هذه المواقع المقدسة.

وكنت أكرر رغبتي في أن يذهب كل مواطن أو مقيم مكي، وكل متصل بأعمال

الحج والعمرة ليسير على قدميه في كل الشوارع الاثنى عشر المتفرعة من ميدان قوس النصر في باريس (وكنت ولا زلت أعبر عنها بالساعة والاثنى عشر نصف قطر لها)، ليرى كيف تستوعب باريس في بعض الأيام الصيفية ما يقترب من الأعداد التي يشهدها موسم الحج.

كنت أرى الضرورة ملحة إلى الابتعاد بكل هذا الزخم من النشاط التجاري والسوقي عن حرمة المشاعر القدسية، أيًّا ما كانت صورة هذا الابتعاد رأسيًا أو أفقيًا، وكنت في غاية الاطمئنان حين أنهي إليّ أن خطة النظام السعودي قد رتبت أن هذه المباني المحيطة بالكعبة ستزال تمامًا، وأن عمرها محدد بخمسة وعشرين عامًا فقط.

ولا أزال أتمنى أن أعيش حتى أراها وقد أزيلت وعاد للجو المحيط بالكعبة صفاؤه.

(٨)

وكان الأمل الثاني في حديثي يتمثل في ضرورة الإسراع إلى نشر السكة الحديد، على الرغم من كل الاعتراضات التي أثارها السامعون والمستمعون والسائلون والمتسائلون، وأظنني قد ضمنت هذا الفصل جوهر رأيي في هذا الموضوع.

وكان الأمر في تقديري يتجاوز النفع الاقتصادي إلى ما هو أهم بكثير، وهو الارتقاء الحضاري الذي تصنعه السكك الحديدية، من ضبط التوقيت اليومي في المجتمعات التي تمر بها، ومن تربية الأسس الكفيلة بالمساعدة على تنمية روح التآزر في الخدمات العامة القائمة على وجود السكك الحديدية، بما في ذلك وسائل المواصلات التي تنقل الواصلين بالسكك الحديدية إلى وجهاتها الأخرى في داخل المدينة أو في مدن وتجمعات الإقليم الصغير الذي تمثل المدينة عاصمة له.

كنت أرى في «مجتمع القطار» ضرورة ماسة يحتاجها المجتمع السعودي (أفرادًا وعائلات على حد سواء)، في ظل انشغاله المحموم بقيادة السيارات وتوخي الحذر من كوارثها وكوارث طرقها.

وكنت على صعيد آخر أرى السكك الحديدية بمثابة الأسلوب الأمثل لانضباط مثالي في توزيع الموارد الغذائية والتموينية، على نحو لا يتطلب من السعوديين

توافر مساحات تخزينية هائلة، تتكلف كثيرًا في تكييفها وتبريدها، ولا إنشاء مخازن ومستودعات في كل مكان بكل ما يتطلبه هذا من ظروف تخزين واشتراطات تخزينية صحية وبيئية وأمنية.

(٩)

كتبت في أوراقي القديمة عن جدة ١٩٨٩ أنني لا أستطيع أن أتجاوز الإشارة إلى حقيقة افتقاد المملكة إلى شبكة ممتازة من السكك الحديدية.

وسجلت في أوراقي ما قلته لأصدقائي من أن هذا الافتقاد يمثل جانبا من أهم الجوانب التي ينبغي على حكومة المملكة أن تعنى بها بأسرع ما يمكن، فستظل السكك الحديدية، في كل مكان، بمثابة صمام الأمن الاستراتيجي في حركات النقل في دنيانا هذه.

ويكفي للتدليل على ما أقول أن السكة الحديد تسير دومًا في مسارات بعيدة عن كل الاضطرابات المعهودة في الطرق والتي تعاني منها السيارات والحافلات وكل وسائل النقل البري الأخرى.

(١٠)

وقلت في أوراقي القديمة إن الإنسان لا يستطيع أن يتصور مدى الحاجة الحضارية الملحة إلى السكة الحديد إلا بمقارنة حضارات العالم المختلفة مع حضارة أوروبا القائمة أساسًا على وجود السكك الحديدية، وعلى تنظيمها الذكي والفعال لحركة الإنسان والمجتمع والإنتاج.

فقد كان في وسع أوروبا أن تتنازل عن بذل الجهد في تحقيق الرفاهية عن طريق السكك الحديدية منخدعة بكثرة عدد السيارات وسهولة حركتها، ولكن الذي لاشك فيه أن السكك الحديدية في أوربا لا تزال تمثل الملاذ الإيجابي الأول والأخير لعموم الشعب، وحتي لأصحاب السيارات حين يريدون التحرر الإيجابي من سياراتهم.

أحب أن أكرر القول بأن الحديث الحضاري عن السكك الحديدية يبدأ من كونها

معْلمًا في الحياة، وذلك بحكم طبيعتها المحددة في المسار وفي التوقيت وفي البدايات والتوقعات والنهايات، وغني عن البيان القول بأنها تمثل نشاطًا ذا برنامج يتقيد بجدول زمني محدد وواضح ومستمر طوال العام، لذلك فإنها هي الملجأ الذي يطمئن الجميع إلى إمكانية القيام بمهمة السفر في كل وقت وأي وقت، ولا يجعل صاحب الهدف تحت رحمة ما نعرفه من تجاوزات في سوق العرض والطلب عند سائقي التاكسيات أو الأتوبيسات.

وفضلًا عن هذا فإن السكك الحديدية هي الضمان الأول والأخير لتوزيع ما يمكن لنا أن نسميه بالسلع اليومية، بما في ذلك الصحف والمطبوعات، والمواد الغذائية الطازجة، والمواد الطبية.. بصورة منتظمة تمامًا وبكميات لا نهائية، وفي أوقات منضبطة معروفة مسبقًا.

فضلًا عن هذا وذاك فإن القطار القادم من أي مدينة إلى مدينة أخرى يسهل التعرف عليه وعلى وقته وعلى رصيفه أكثر من التعرف على أية سيارة أو حافلة مناظرة.

وفي هذا تيسير على المنتظر أيًا ما كان هدفه من الانتظار، وهو هدف لا يقف عند حدود استخدام الزائر القريب آو الصديق، وإنما يمتد إلى انتظار السلع والخبز.. إلخ.

ومع اعترافي التام بأن الطيران المدني في السعودية يقوم بكثير من هذه الوظائف بكفاءة عالية، إلا أن التخطيط للتنمية لا بد له وأن يضع أسسًا ثابتة (بأقل ما تكون التكلفة الجارية وتكاليف التشغيل) لأداء كثير من الخدمات، حتى إذا ما اضطرتنا الظروف ذات يوم إلى اختصار رحلات الطيران لأي سبب من الأسباب الاقتصادية أو الأمنية وجدنا البديل المنتظم.

(١١)

أما عامل الأمان في السكك الحديدية فإنه يمثل في حد ذاته هدفا تسعى إليه كل وسائل المواصلات الأخري، ولا ننسى أن هذا الأمان يتحقق مع أن سرعة القطار (التي هي نموذج السرعة الآمنة) تفوق كثيرًا سرعة السيارات الصغيرة والكبيرة (غير الآمنة)، وأن الاعتماد على الكفاءة البشرية (التي ربما تصبح نادرة) المطلوبة لقيادة

القطار كفيلة بأن تختصر الحاجة إلى كثرة الكفاءات البشرية المطلوبة للقيادة الآمنة للسيارات بما لا يقل عن مائة مرة.

وكل هذا يبدو مهمًا فحسب إذا ما قورن بما هو أهم، مما لا يزال غائبًا أو مغيبًا عن بيئتنا العربية التي طحنتها المعارك السياسية، وهو دور السكك الحديدية في الاتصالات الدولية التي يتواصل ازدهارها مع أهمية السعودية المتزايدة وقدرتها الاقتصادية المتنامية والآخذة في الانطلاق السريع.

(١٢)

ولست أبالغ إذا قلت بأني أحلم أن يأتي اليوم الذي تنطلق فيه السكك الحديدية السعودية بالمواطن من الظهران (في شرق المملكة) إلى لندن (عاصمة بريطانيا والشمال الأوربي) في خط سريع يسير عليه قطار واحد، وهو أمر يصعب على غير السكك الحديدية تحقيقه.

وسوف تجد الحكومة السعودية أن هذه السكك كفيلة بخفض تكلفة نقل المواد الغذائية والتجارية من أوروبا وتركيا والهند إلى أقل من عشرين في المائة من تكلفة النفقات الحالية، أي أنها ستوفر ٨٠٪ من مصروفات النقل.

وقل مثل هذا عن الطريق المقابل، وعن آفاق التصدير التي تفتحها السكك الحديدية للمصانع السعودية التي يرحب المشرق العربي بالاستيراد منها والاعتماد عليها.

(١٣)

كان الأفق الثالث في حديثي هو شبكات الصرف الصحي وكنت معتزًا بما أنجزته مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر في طريقها، ثم ما أنجزته مصر المعاصرة بفضل السادات والبريطانيين في المشروع الذي كنت أصفه دائمًا بأنه أكبر من مترو الأنفاق وألزم للحياة من مترو الأنفاق، رغم كل ما هو معروف من تحمسي لمترو الأنفاق.

كنت أرى أن كل تأخير في إنجاز السكك الحديدية أو إنجاز شبكة الصرف الصحي سوف يؤذي خطط التنمية الجسورة التي تنتهجها السعودية، بما لا يمكن أن يتصوره إنسان لم يدرك الفارق بين تجمعات كبرى ذات صرف صحي وأخرى تفتقده.

(١٤)

كنت في أفق رابع أرى أن السعودية تأخرت كثيرًا في إقامة ومدّ مشروع مترو الأنفاق في مدنها الكبرى بصوره المختلفة.

وكنت لا أستطيع تصور مشاعر الحرم بدون المترو، ولا مشاعر الحج بدون المترو، ولا الوصول من مطار جدة إلى الحرم إلا بالمترو.

كما كنت أرى جدة والرياض والدمام والظهران في حاجة إلى الإسراع بشبكات مترو الأنفاق.

(١٥)

في أفق خامس كنت أرى السعودية في مجال العلم والتعليم في حاجة إلى الاستئناس بتجربة هارون الرشيد وابنه المأمون.

وكنت أرى أن أكبر مكتبة في العالم لا بد أن توجد على ساحل البحر الأحمر المقابل لمكة المكرمة، وكنت أرى في السعوديين وإمكاناتهم القدرة على إنشائها مستقلة عن كل شيء، بفضل ما يتمتع به مذهبهم الفقهي من سعة ومرونة وذكاء وتاريخ.

لكنني كنت أقدر أن مثل هذه المكتبة تتطلب قرارًا سياديًا عميقًا لا بد أن يحظى بدعم كبير تالٍ لصدوره، وبالإسراع فيه ونجاحه مع التعليقات والعقبات الروتينية؛ من قبيل القول: أما تكفينا مكتبة جامعة الملك عبد العزيز... إلخ.

وكنت أرى هذه المكتبة (مكتبة الإسلام) تفرض على نفسها ألا يغيب عنها أي شيء يتعلق بالإسلام، بما في ذلك تلك المؤلفات التي يمكن تسميتها: كتب الافتراء على الإسلام والتقليل من دوره، ومعاداة نبيه عليه السلام، فلا يمكن إصلاح الخطأ من دون الاعتراف بوجوده والاعتراف المنكر لوجوده.

كنت أرى شبكة الجامعات السعودية الناهضة بحاجة إلى قاعدة معلوماتية قوية وجديدة تصل بين مكتباتها وأوعية معلوماتها وأرشيفها وقوائم خريجيها ودراساتها، وتقارن بين مناهجها ومتطلباتها، وتلقي الضوء على جدوى هذا الاختلاف والتباين.

وكنت أرى وجود هذه الشبكة قد تأخر وأنها يجب أن تكون مناقضة ومناهضة في ذلك التوجه توجهًا آخر يمثله السلوك الشمولي الذي يرفع شعارات من قبيل توحيد المقررات والمعاملات والمناهج، والذي لا يسمح بالتباين المثمر.

وكنت أقص تجارب مصر الليبرالية في هذا المجال فأحس من السامعين بإشراقة الوجه والرغبة في التحقيق السريع والإسراع لإنجاز مثل هذا التفوق.

(١٦)

في أفق سادس كنت أرى السعودية في حاجة إلى تصور عمراني شامل يهيئ لها ما تهيأ لأمريكا من عمران وتنمية. ولهذا التصور روافد لا بد معها أن أنتقل بك هنا وهناك.

أبدأ فأنتقل معك الآن إلى حركة العمران وثوابته، لاستعرض لك بعض ما أعجبني في السعودية، وهو كثير، وبعض ما أتمناه لها، وما أتمناه لها ليس بالقليل.

إذا قيل إن جدة الحالية (كتبت هذ الكلام في ١٩٨٩، ومن العجيب أن هذا الحكم لا يزال صوابا)، تتسع لحوالي مائة ضعف مَنْ هم فيها الآن، فليس في ذلك مبالغة.

فالحقيقة أن هناك أعدادًا لا نهائية من المساكن الخالية، ثم إن كل مسكن محاط بمجموعة لا نهائية من الأراضي الفضاء المقسمة والمزودة بالخدمات، أي المجهزة للبناء الممتاز، وقد انخفضت أجور المساكن انخفاضًا ملحوظًا (إلى حوالي الثلثين) خلال العامين الأخيرين ١٩٨٧ و ١٩٨٨.

ومهما انتقد بعضنا الفكرة التي تتمثل في أن بعض هذه المساكن قد بنيت بلا حاجة حقيقية إليها، فلا شك أن وجودها على هذه الصورة، أو وجود الأموال التي أنفقت في بنائها على هذه الصورة كان أفضل من بقاء هذه الأموال السعودية مودعة أو مستثمرة في بنوك الخارج تزداد ٥٪ أو ١٠٪ كل عام، بينما هي لا تزال نقودًا، غير معبرة عن العمران ولا عن الحضارة.

هذا هو رأيي مهما كان فيه من خطأ ظاهر في نظر رجال الاقتصاد والمتخصصين فيه.

لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بمدي الفائدة الأعظم التي كانت تتحقق لو تم

استثمار هذه الأموال في مجال أكثر فائدة وعائدا من مجالات الاستثمار غير العقاري، ببناء المصانع ومقرات أو منشآت تجارة الخدمات، وهي نوع من الإنتاج، لا شك في أن العقليات السعودية سوف تتجه إليه بحكم فهمها التاريخي العميق لمعنى التجارة ومجال الأعمال.

(١٧)

مما لا شك فيه أن السعودية قد بدأت تجني ثمار النجاح في مثل هذه الخطوات التعميرية والتصنيعية الجبارة التي خطتها بالفعل.

لكن الجانب الآخر من القضية يتمثل في أن الاستثمار الصناعي كان بمثابة تجربة جديدة على رءوس الأموال السعودية، أي أن تجربتها فيها كانت غير ممتدة في الماضي، على نحو يقترب بها من البرجوازية السورية أو البرجوازية المصرية، ولهذا فقد كان من الصعب أن يتقبل أصحاب هذه الأموال الاندفاع مرة واحدة في صناعات أو مصانع يصعب التكهن بمستقبلها مهما كانت سلامة ودقة الدراسات المعدة عنها.

ولهذا فإن تقبل فكرة تحول رءوس الأموال إلى الاستثمار المتزايد في العقارات وبناء المساكن ليس بالأمر الصعب فهمه على المنصفين، وإن كان السعوديون بحكم ذكائهم المالي أصبحوا يتجهون إلى الصناعة اتجاهًا مذهلًا.

ليس من الصعب كذلك استيعاب مثل هذه الفكرة على المعماريين والإنشائيين أنفسهم الذين قد يتخوفون من أن تصبح بعض هذه المساكن في المستقبل القريب (بعد عقد أو عقدين، أي بعد عشرة أعوام أو عشرين عامًا) غير متواكبة مع التطور المعماري القادم في بناء وتأهيل المساكن، وهو ما يمكن التعبير عنه بما يحدث معنا اليوم حين نتحول من طرازات قديمة إلى تقنيات متطورة تستخدم أجيالا جديدة من الألوميتال والسيراميك.

ومع أن هذا الرأي حق في ظاهره، فإن فكر التنمية لا يحبذ تأجيل تحقيق إنجازات ممكنة في الحاضر خوفًا من احتمال تجاوز المستقبل لها في بعض التفصيلات، وذلك بحكم طبيعة الإنجاز.

(١٨)

أما ما هو ظاهر بوضوح من شبكة الطرق الهائلة التي أنجزتها المملكة فأمر يستحق كل تقدير وثناء، على الرغم من أن الطموح الحق يفوق المتحقق وسرعة التحقق.

ويكفيك من طريق المدينة المنورة ـ مكة ـ جدة هذا الاتساع الهائل في عرض الطريق، وما يحفل به الطريق من محطات البنزين التي تضم بعضها حوالي مائة منفذ لبيع البترول (أو المحروقات كما يسمونها هنا في بعض المحطات)، فضلًا عن محطات استراحات الركاب المواكبة (أو المجاورة) لمحطات البنزين، والمساعدة على نشأة مجتمعات عمرانية صغيرة إلى جوارها.

ولست أنكر إعجابي أيضًا بالإجراءات التأمينية المتعددة التي يحفل بها جانبا الطريق حماية لنهره وحماية للمرتادين والعابرين.

(١٩)

أنتقل بك الآن إلى عالم آخر.. تمثله رحلة أخرى قريبة في الزمن من الرحلة الأولى التي حدثتك عنها في مطلع هذا الفصل.

ذات مرة آثرت في رحلة «منفردة» لأداء العمرة أن ألجأ إلى البحر طريقًا إلى العمرة، ولا أخفي (أو بالأحرى لا يخفى) أن هدفي من هذه الرحلة البحرية كان هو المرور بالتجربة، ولهذا فقد احتفظت لنفسي طوال الرحلة بقدر من السعادة المشوبة بالرضا، أو الرضا المشوب بالسعادة عن كل ما فيها من صعاب، ومع هذا فإني لا أنكر أن هذه الرحلة كانت حافلة بالمصاعب التي لا أول لها ولا آخر.

وربما كان السبب الأول (أو القاسم المشترك) وراء كل هذه المصاعب أن بعض العاملين في هذا المرفق من مرافق النقل البحري لا يضعون على الإطلاق في حسبانهم أن تحديد الوقت بدقة مبدأ من مبادئ حقوق الإنسان، أو احترام آدميته، ويكفي دليلًا على التغاضي منهم عن احترام الوقت أن نقول إن الوقت عندهم يمضي بطيئًا بلا أي تقدير لسرعته أو عجلته.

ولنبدأ من اللحظة التي تتوجه فيها لحجز التذكرة ونتأمل كيف يمضي الوقت بلا ثمن.

- قالت لي موظفة حجز التذاكر في مكتب الشركة: إن عليّ أن أكون في الميناء قبل السادسة صباحًا لأن الباخرة ستمضي إلى حال سبيلها في الثامنة.
- في اليوم التالي قال لي المدير: لا تخف فإن الباخرة لا تغادر السويس قبل التاسعة.
- وعندما أكدت الحجز قال لي مكتب الوكيل الرئيسي لشركة القمر السعودي إن في وسعي أن أغادر القاهرة في السادسة والنصف فأكون في الميناء في حدود الثامنة والنصف، لأن الباخرة لن تتحرك قبل العاشرة.
- في الطريق إلى السويس أخبرني من شرفت بصحبتهم من المواطنين السوايسة الذين شاركوني ركوب السيارة من القاهرة، أن الباخرة تغادر مدينتهم في الثانية ظهرًا.

(٢٠)

بعد كل هذه الأقوال غادرت الباخرة السويس في الرابعة مساء، وكنت أظن أن في هذا تباطؤا مصريا، إلى أن مررت بنفس التجربة في جدة في طريق العودة، فإذا الباخرة تغادر جدة لا في الثامنة ولا في التاسعة ولا في العاشرة ولا في الرابعة وقت العصر، وإنما في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وهكذا فإنني بقيت في حدود جدة في انتظار تحرك الباخرة من الميناء ١٧ ساعة.

لا تقطع عليّ حبل أفكاري بقولك إن هذا أصبح يحدث أيضًا في المطارات والطائرات في مواسم العمرة والأعياد... إلخ، فليس هذا مبررًا لذاك.

(٢١)

وأسأل نفسي: لماذا يضيع كل هذا الوقت في رحلات الباخرة بين قطرين كبيرين؟!

الإجابة التي ربما تفرضها عليك التجربة فرضًا معرفيًا هي أن خدمة هدا العدد الضخم من الركاب هو السبب الواضح وراء ذلك!

ولكن التأمل العميق يهديك إلى أن عدد الركاب في رحلة الذهاب كان ٨٦٨ راكبا، وفي رحلة العودة ٨٩٠ راكبا، وهو عدد لا يتعدى ضعف ركاب طائرة بوينج ٧٤٧، حيث يمكن لموظفي شركات الطيران المتدربين جيدًا أن ينتهوا تمامًا من كل

إجراءات شحن الأمتعة وفحص الجوازات وتحديد المقاعد، وإعطاء كروت الإقلاع في أقل من ساعة واحدة، كما تنتهي مع هذا أيضًا إجراءات فحص الركاب من أجهزة الأمن والتأمين.. إلخ.

ومن الممكن في مثل هذه البواخر أن تتم الإجراءات في الوقت نفسه إذا ضاعفنا عدد الموظفين الأكفاء، خصوصًا مع اتساع القاعات في الموانى عن مثيلاتها في المطارات.

ولست أريد أن أنطلق من تجربتي إلى أحكام كلية أو عمومية، فالتحرز أو الاحتياط أو التحفظ في مثل هذه الأحوال والذكريات واجب، فربما كانت البواخر على الخطوط الأخري شيئًا مختلفًا، ربما تكون هناك بواخر أخرى وضعت في حسبانها حقوق الإنسان في أن يسافر في يسر ما أمكن، وفي أن يستريح بعد عناء، وأن يعامل في سفره بمراعاة أن السفر ليس إلا كما قال رسول الله ﷺ: «قطعة من العذاب».

ولست أريد أن أقارن الوضع بتجاربي في إنجلترا وفرنسا والدنمرك والنرويج.. إلخ.

(٢٢)

أحب الآن أن أقوم بواجب مهم وهو أن أحدث القارئ عن بعض ذكرياتي عن الرحلة على سطح الباخرة في رحلة العمرة.

بالطبع كان السؤال الذي سيطر عليّ طوال هذه الرحلة بل من قبل بدايتها هو: هل يستطيع الإنسان المسافر الذي تعود على ركوب الطائرات وعلى ركوب السيارات المسرعة والقطارات فائقة السرعة أن يدرك معنى حقيقة نفسية تقول له إن عليه إذا ركب الباخرة أن يتقبل فكرة أنه قد حكم عليه بالسير على سرعة ٢٢ كيلو مترا، فإن أسرع في سيره فهو لن يزيد على سرعة ٢٥ كم فقط.

وهنا أعترف أنه ربما ذهب التشاؤم أو القنوط بالإنسان في بعض لحظات هذه الرحلة أن يتصور أنه في سجن كبير متحرك على هذا النحو؟

ولكن على الإنسان أن يتذكر أيضًا أنه في حصن مريح له فيه غرفة خاصة، تضم سريرًا ينام فيه الإنسان منعزلًا عن الدنيا المحيطة به، وشرفة يطل منها على بحر عميق واسع يحيط به من كل جانب.

ومع هذا فإن الملل لا يفتأ يتسرب إلى نفس الإنسان العجول، أو المتعود على وتيرة مسرعة، وتدور الحوارات بين الركاب بعضهم وبعض، وتمر هذه الحوارات بفكرة الرحلة بالباخرة مرورًا ظالمًا يسخف من الفكرة تمامًا، ويذكر عيوبها دون مزاياها، ولا يني عن تكرار هذا الحديث المتحامل على الباخرة وعلى ركوب الباخرة، بل وعلى وجود الباخرة، فإذا بعضهم يدفع البعض الآخر دفعا إلى عداء الباخرة ورحلة البحر كلها، والانتصاح وأخذ الدرس بعدم اللجوء إلى الباخرة مرة ثانية.

والحقيقة أني لست مع هذا الرأي بأي نسبة من التأييد، خاصة إذا كان ممكنًا للإنسان أن يصطحب معه ما يريد أن يقرأ.

(٢٣)

مع هذا، وربما قبله، فإن المشاهد المسرحية الموحية بالتأمل أو بالضيق والنفور من التجربة تتوالى بسرعة وكثافة:

• بالقرب من دورة المياه جلس رجل مسن (أو بالأحرى تقرفص) وأخذ يلعن الذي صمم الباخرة وبناها.

• في الطرقات رجال ونساء افترشن الأرض وجعلن منها منضدة للطعام، وأخذوا يتناولونه كأنهم في مأدبة حقيقية.

• وبعد هؤلاء مجموعة أخري لم يتذكروا (إلا مؤخرًا) أنهم تركوا الحقائب التي تحوي الطعام في مخزن الباخرة، فإذا هم نادمون منزعجون لما يحدث عندما يختلط الطعام ببعضه، بل وبالملابس والكتب!! بينما هم في حاجة إليه الآن.. لكنهم لا يستطيعون بالطبع الوصول إليه.

وهنا تأتي مناسبة الحديث عن التجربة الأولى التي لم تلجأ إلى السؤال المعرفي أو التصور المنطقي.

(٢٤)

رأيت في رحلة العودة من جدة كثيرًا من الركاب وقد حرصوا على شراء صندوق

كامل من التفاح فيه عشرون كيلو يبلغ ثمنها جميعًا خمسة وسبعين ريالا، وبعضهم اشترى صندوقين (هذا هو سعر الصندوق، بينما سعر الكيلو في المحلات خمسة ريالات).

ونسبة كبيرة من الركاب أو زملاء السفر حرصت على شراء أجهزة التسجيل، وبعض هؤلاء تنبهت عندهم على حين فجأة متعة الموسيقي والغناء، فحرصوا على شراء أشرطة أم كلثوم وعبد الحليم من الميناء وأداروا بها التسجيل، الذي لا يزال كما هو «بشوكه» في علبته أو لا يزال كما يقولون في كيسه السلوفاني.

يدير كل من هؤلاء جهازه باستعمال الحجارة الجافة حتى لا يضطر إلى البحث عن مقبس للكهرباء في الباخرة، وربما يجده وربما لا يجده.

وواحد من ركاب الباخرة أبدع في تطوير الاستخدام فاستقدم شرائط شيخه المفضل وجعل أمام المسجل ميكروفونا صغيرًا أحضره معه و«مرْكز» هذه الإذاعة المحلية الخاصة والمجانية والإجبارية في وسط سطح الباخرة، ودعا الناس إلى الالتفاف (مجانًا) حول الشيخ وحديثه الناقد في السياسة والاجتماع، وهكذا تملك هذا المصري الذكي أقوى محطات الإذاعة الحرة والمجانية على ظهر الباخرة.

وفي الطرقات وفيما بين الغرفات تجد السيدات اللائي آثرن الجلوس على الأرض، سواء أجلسن في مداخل الغرف أم إلى جوار هذه المداخل، وقد أخذن يتداولن القصص المألوفة التي لخصها الأدب العربي القديم من قبل في حوارات ممتعة لعل أبرزها حديث أم زرع، والإفاضة في الأحاديث في شأن الزوج الذي بخل على بناته في حياته وحياتهن، والعريس الذي لم يثبت لأنسبائه دليلا على الأريحية اللائقة، والمكافح الذي تمكن من أن يحقق المعجزات في سنوات قليلة، والجار الذي ترك أهله أو نسيهم حين أمضى خمس سنوات في الخارج لم يسأل عنهم مرة واحدة، ولم يرسل إليهم درهما واحدا خلال تلك السنوات.

(٢٥)

أما نادي «التيفولي» الذي تقول الباخرة في أوراقها ولافتاتها وشركتها إنها تفخر بوجوده في هذه العبارة، فقد تحول مع الزمن تحولًا تامًا إلى مقهى بلدي ممتع، وقد

تحلقت فيه مجموعات صغيرة حول الكوتشينة أو الطاولة أو الشاي أو القهوة (سواء كان الشاي من الكافتيريا، أو كان من صناعة محلية بأيدي أصحابه!!)، فإذا حان موعد عرض الفيديو تحول المقهي إلى نوع شبيه بما يسمى سينما الفيديو التي كنا نراها في ذلك الوقت في مقاهينا البلدية.

وربما امتد الحال إلى كافتيريا الدرجة الأولى التي تؤثر بعض السيدات الجلوس فيها، والتي سرعان ما تتحول هي الأخرى إلى ما هو شبيه تمامًا بسينما قاهرية تقدم عروض الفيديو للأفلام المصرية.

والجماهير كعادتها منفعلة انفعالًا غير محسوب ولكنه محدود تمامًا بهذه العروض، فالذين شاهدوا الفيلم من قبل يسارعون إلى وصف الحدث السينمائي قبل وقوعه، والذين يشاهدون الفيلم للمرة الأولى تصدر تعبيراتهم المتوقعة أو المعهودة: مجتمعة ومتوحدة.

(٢٦)

كانت تجربتي فيما ركبته من بواخر أوربا أنها تسعى لإفساح المداخل وتيسير حركة الدخول والخروج، بحيث لا تتراكم الجماهير ولا تتدافع.. ولكن هذه البواخر التي خبرت إحداها (أو أفضلها) في هذه الرحلة تصر على أن تجعل الركاب الثمانمائة يقفون وراء بعضهم في صف واحد طويل، ثم لا يتحرك هذا الصف للخروج منها إلا بعد ساعة من اصطفافه، وتجعلهم أيضا يدخلون كلهم الباخرة في وقت واحد، فإذا هم يتكومون بعضهم فوق بعض، وإذا هم ينحشرون بين أمتعتهم، وإذا هم يقعون على الأرض، وقد تكون فيهم السيدة الحامل، والعجوز المسن، والرجل المريض، والطفل الصغير.

وفوق هذا كله فإن المكاتب المسئولة عن هذه البواخر تصر ـ كما قدمت لك ـ على أن تجعل الركاب الذين دفعوا أجرة السفر هذه من دخلهم المتواضع وعلي حساب قوتهم المحدود يتعذبون في انتظار كل هذه الإجراءات منذ الصباح الباكر.

وهم يبررون هذا التصرف باعتقاد قوي في عقولهم بأن هؤلاء الذين يتعاملون معهم

يمثلون درجة أخرى من البشر، وهي درجة لا بد أن تكون أقل من تلك الدرجة التي تركب الطائرات وتلتزم بالمواعيد!!

(٢٧)

أنتقل بك بعد هذا إلى طاقم سفينة «القمر السعودي» التي اخترتها للسفر إلى جدة (منذ ربع قرن)، وقلبي مع هذا الطاقم، فقد كان يبدو طوال الرحلة أسيفًا على باخرتهم ذات السبعة عشر ربيعًا والتي لم يعد لها على هذا الخط غير رحلة أو رحلتين ثم تتوقف هذه السفينة عن مثل هذه الرحلة؛ لأنها بيعت نهائيا.

وأغلب ظن طاقم سفينة «القمر السعودي»، أو فلنقل أقصي معلوماتهم، أنها بيعت إلى شركة في أمريكا اللاتينية سوف تستخدمها كنادي للقمار؛ حيث تعيد بناء الدور العلوي بحيث تجعله كافتيريا كبيرة جدًّا بحجم السفينة كلها، وتلغي الكبائن وتعيد بناء دورات المياه.

بعد هذا التأهيل تعمل هذه الباخرة في تلك البلدان التي يروج فيها نشاط نوادي القمار، بحيث تأخذ بعض الركاب من على شاطئ البلد وتتحرك بهم خارج المياه الإقليمية لدول تحرم القمار أو تحظره بحكم القانون أو تربطه بضرائب باهظة، حيث تبقى العبارة شبه سائحة وشبه متوقفة طوال الليل، حتى يتمكن هؤلاء من لعب القمار بعيدًا عن حدود الدول التي تفرض عليه ضرائب باهظة.

ولست أنكر أن هذا المثل الحي للاستخدام يعبر بذكاء ودقة أو بسذاجة وعمومية عن صورة موحية للذين تهويهم المقارنات بين الاستخدامات (الحلال) والاستخدامات (الحرام) للوسائل والوسائط التي تتاح للإنسان!!

(٢٨)

وربما سأل سائل: ولكن لماذا تبيع الشركة هاتين الباخرتين على الرغم من المكاسب الظاهرة التي يتوقعها كل مَنْ يرى البواخر ملأى بالركاب؟

حقيقة الأمر أن هناك عوامل كثيرة تجعل من هذا الاعتقاد الظاهر (أي الاعتقاد في

المكاسب الطائلة) مجرد وهم، كما هو الوهم الشائع عن الأرباح الخيالية لشركات الطيران، بينما تلك الشركات تعاني في موازنات تشغيلها واستمرارها أكثر من أي مجال آخر لاستثمار الأموال.

ويكفي لبيان هذه الحقيقة أن نقارن بين ظروف تشغيل هذا الخط الملاحي في نهاية الثمانينيات وظروف تشغيله من خمس سنوات فقط.

فعلى سبيل المثال فقد تغيرت نوعية الركاب بحيث أصبح نموذج راكب الباخرة هو ذلك الراكب الحريص على إنفاق أقل قدر من المال على رحلته، وهو ما يعني أن الراكب حريص في الغالب الأعم على تجاهل الإنفاق.

وقد لاحظ هؤلاء العاملون في البحر عن حق أن الارتفاعات المستمرة في أسعار تذاكر الطيران في ذلك الوقت ، لم تواكبها في الوقت ذاته ارتفاعات مماثلة في أسعار البواخر، فإذا علمت أن الراكب المصري مثلا يوفر بركوب الباخرة (في المتوسط) ٦٠٪ من تكلفة الانتقال إلى السعودية، أدركت على الفور مدى الفارق بين مستويين أو نموذجين من مستويات الإنفاق.

فوجئت بهذه المقارنة، فقد كانت معلوماتي من رحلاتي الأوروبية أن ثمن تذكرة الباخرة يعادل تمامًا ثمن تذكرة الطائرة، وأن الفارق في تكلفة الطيران المرتفعة عن تكلفة البواخر يغطي نفقات إطعام الراكب على مدي أيام رحلة الباخرة.

(٢٩)

ونعود إلى ما يرويه الملاحون والعاملون عن اقتصاديات تشغيل سفينتهم، وهم يقولون إن مطاعم وكافتيريات الباخرة أصبحت لا تعود على الشركة المالكة بالفوائد التي كانت تحققها مع الركاب القدامى، فقد شهدوا حقبة من الزمن كان يصعب على الراكب فيها أن يجد لنفسه مكانا في المطعم من شدة الإقبال عليه، بينما ترى مطعم الباخرة اليوم خاليا إلا من عشرة أو عشرين من الركاب.

وبالإضافة إلى هذا فإن البواخر تفتقد اليوم موردا مهما وهو شحن السيارات، بسبب التغير في السياسات المصرية الحاكمة للاستيراد وتقييد السماح بدخول

السيارات المستعملة، فقد كانت الباخرة الواحدة في الرحلة الواحدة تنقل ما لا يقل عن ١٧٠ سيارة تتقاضى مبالغ ضخمة من رسوم شحنها، دون أن تبذل جهدا يذكر، فالسيارة تتحرك حين تدخل وحين تخرج، وفيما بين ذلك لا تتحرك ولا تأكل ولا تشرب، على عكس الراكب ومتاعه!!

(٣٠)

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد من الظروف التي تلعب ضد اقتصاديات النقل البحري، بل إن هذه البواخر أصبحت في المقابل مطالبة بنفقات متزايدة كل يوم، وفي كل رحلة كذلك.

وعلي سبيل المثال فإن باخرتنا (أو عَبْارتنا) التي أتحدث عنها يلزمها ٥ آلاف طن من المياه العذبة، يكلفها الطن الواحد في مصر ٣ دولارات، وفي السعودية ٧ دولارات، وهي لهذا تتزود بالمياه من مصر، على حين تتزود بالبترول من السعودية.

وتسدد البواخر الآن مبالغ كبيرة كرسوم لسلطات الموانئ، وباخرتنا هذه تسدد لميناء السويس (في نهاية الثمانينيات) حوالي سبعة آلاف دولار في المرة الواحدة، على حين أنها تدفع أقل من ذلك بكثير في ميناء جدة، لأنها أيضًا بحكم الشركة التي تملكها سعودية الجنسية.

ثم إن البواخر (شأنها في هذا شأن كل آلة) تنخفض قيمتها سنة بعد سنة، وتبلغ باخرتنا ١٧ عاما من العمر، حيث أصبحت قيمتها السوقية حوالي ٣,٥ مليون دولار، بينما كانت قيمتها السوقية حين كانت في الثانية عشرة من عمرها حوالي ٦ ملايين دولار.

ومن الطريف أن هذه الباخرة تمضي بها السنون حتى تباع بالكيلو، أي حديدًا خردة، وخشبًا خردة... وهكذا.

(٣١)

لست أحب في حديثي عن رحلة العمرة أن أمضي من دون أن أشير إلى حقيقة أنه كان مسموحًا لركاب الباخرة بحدود لا نهاية لها من الوزن، ومع هذا فإني اكتفيت في الذهاب والعودة بحقيبة اليد الصغيرة التي تمكن من الحركة بسهولة.

وعندما وصلت إلى ميناء جدة اكتشفت أنهم لن يسمحوا لأحد بالخروج إلا بعد انتهاء جميع الركاب من تسلم الحقائب، وهو ما لن يتم إلا بعد انتهاء ختم الجوازات كلها، في عنق زجاجة بيروقراطية يتمثل في ضابطين فقط.

وكان معنى هذا أن أنتظر ساعات وساعات، لكني فكرت في فكرة أخري، وهي أن أستأذن السلطات في أن تلحقني بركاب الباخرة السابقة الذين كانوا قد أوشكوا على الخروج جميعا، وقد حاولت مع كل مَنْ قابلت من السلطات السعودية أن يحددوا لي منفذًا للخروج، والحق أنهم كانوا، رغم تعجبهم من هذه الحالة النادرة، سعداء بهذا الراكب الذي ليس له متاع غير حقيبته، وتركوني أخرج مع ركاب الباخرة التي وصلت إلى الميناء قبل باخرتنا بأكثر من ساعتين.

(٣٢)

تملكتني الخواطر كلها وأنا أتأمل المعتمرين يفدون زرافات ووحدانا إلى مواقف السيارات في جدة يبتغون زيارة قبر رسول الله ﷺ في المدينة، فإذا هم في أخذ ورد مع سائقي السيارات، ويسمونها هنا السيارات الجيمس، والسيارات الأمريكاني الأخري، والسيارات التويوتا، ثم إذا هم يحسبون كم من الوقت يمضي في الطريق؟ وهل سيدركون المدينة المنورة قبل الفجر أم لا؟ وأين يستريحون؟ وما هو المدى الذي يمكن أن تقطعه السيارة متحركة هادرة قبل أن يكون مطلوبًا من سائقها أن يفتح الباب أمام موتورها الساخن ليستريح من السخونة التي نتجت عن حركته الدائبة.

ثم والأغرب من ذلك أنك تجد أكثر من موقف لهذه السيارات، فهذا موقف جدة الرئيسي، وهذا موقف آخر على باب مكة... إلخ، وانظر في كل وقت إلى هذه المواقف وأقارن بينها وبين ما أتمناه من سرعة القطار السعودي المرتقب، فيزداد يقيني بأهمية العمل على وجوده بأسرع ما يمكن.

(٣٣)

ربما ينقلني هذا أو يجعلني أستطرد إلى الحديث عن جاذبية التعدد في وسائل النقل وإدارتها في السعودية.

وأنا على كل حال معجب بهذا التعدد البعيد عن الجهود والقريب من حركة رأس المال والخدمات في حرية تامة.

وفي مدينة جدة (١٩٨٩) نظم كثيرة لنقل الركاب داخل المدينة، فبالإضافة إلى عدد محدود من خطوط الأتوبيسات الممتازة ذات المسافات الطويلة الممتدة فإن هناك عددًا من نظم النقل الفردية أو شبه الفردية مثل التاكسي والليموزين، وهناك فرق بين الاثنين لم أره من قبل هذا إلا في مدينة جدة. وإن كنت قد رأيته بعد هذا وقد تطور بمسميات مختلفة، على نحو ما تفعل الحضارة الأوروبية في كل فكرة تجدها وتحبذها وتنسقها أو تهندسها وتنشرها بعد ذلك.

فأما مصطلح «التاكسي» فهو يطلق هنا على تلك السيارات الأجرة التي تعتمد أجرتها على الاتفاق المسبق (أي المقاولة) بين الراكب وبين السائق:

- أريد الذهاب إلى حي الروضة..
- ٣٠ ريالا..
- بل ٢٠..
- لا بل ٢٥..
- لا ٢٤..
- تفضل.

أما «الليموزين» فهو يقابل تمامًا ما نعرفه في أوروبا من صيغة التاكسي ذي العداد (وما كنا نعرفه في مصر قبل أن يصبح نظام التاكسي القاهري خليطا من العداد والمقاولة).

وفي جدة فإن هذه التاكسيات تلتزم في طلائها بلون أصفر جميل يذكرك بالإسكندرية التي يُروى أنها كانت موجودة ومتألقة، وطيلة فترات طويلة في مخيلة وذهن المهندس محمد سعيد فارسي؛ وهو مَنْ خطط لجدة ذلك التخطيط الذي ارتقى بها إلى هذا الحد الجميل!!

وتبدأ البندير بخمسة ريالات ثم يمضي العداد في حركته تبعًا للمسافات التي يقطعها، مع حسابات أخرى لوقفات الانتظار.

(٣٤)

ولا يفوتني أن أفصل لك القول عن النظام الداخلي المتبع في تشغيل هذه السيارات التي استحدثته جدة، وهو نظام ينم عما اشتهر به السعوديون (الأحرار في تناول اقتصادياتهم) من نجاح مفرط في الإدارة والتجارة والتشغيل، وهو نجاح يعترف لهم به العرب والشرقيون والغربيون جميعًا، ولا ينكرون تفوقهم الساحق فيه، وفي إبداع نظم جديدة أو تطوير نظم رأوها في بلاد غربية، واستطاعوا تطويرها لأنفسهم بذكاء ورقة.

ففي هذه المدينة (في عام ١٩٨٩) توجد خمسون شركة خاصة من شركات الليموزين: ليموزين الأمل.. ليموزين الزهرة... إلخ. وتمتلك كل شركة من هذه الشركات عددا من السيارات يتراوح ما بين ٣٠ و٥٠ سيارة.

وتستخدم الشركة لهذه السيارات سائقين ممتازين تسلم كلا منهم سيارة مخصصة له وحده تمامًا بحيث لا يقودها أحد غيره.

ويصبح هذا السائق مسئولا عن سيارته وصيانتها ومخالفاتها... فضلًا عن أن يقوم بتوريد ٢٥٠ ريالا سعوديا عن كل يوم عمل، ويتكفل السائق بالبنزين، ويبقى له ما يزيد على ذلك من إيراد السيارة حتى لو كان ألف ريال، وبالإضافة إلى هذا يتقاضى السائق راتبا شهريا قدره ١٨٠٠ (ألف وثمانمائة ريال في الشهر) وتتكفل الشركة بالصيانة وتغيير الزيت.

أي أن السائق يعطي الشركة في المتوسط في الشهر ٥٧٠٠ (خمسة آلاف وسبعمائة ريال) صافية ثابتة بعد خصم راتبه من الإيراد.

وعلى حين يحصل السائق لنفسه على ما لا يقل عن ١٨٠٠ ريال تزداد مع كمية العمل، فإنه غير مطالب في اليوم الواحد بتحقيق أكثر من مائتين وخمسين ريالا، فإذا كان متوسط أجرة «المشوار الواحد» حوالي عشرين ريالا فإن على السائق أن يعمل ثلاثة عشر مشوارا منها حتى يفي بالحد الأدنى المطلوب منه، بحيث لا يصبح مطالبا بأن يلجأ إلى راتبه الأساسي أو (الاحتياطي) من أجل سداد ما يقابل «الإيجار»؛ أي الريالات المائتين والخمسين.

كنت ولا أزال أعتقد أن في هذا النظام أكثر من جانب بديع بلا شك، وأبدع ما فيه أنه يحارب بل يمنع الفرصة لنمو ما نسميه في علوم الاقتصاد والاجتماع: «الأمراض الاجتماعية المصاحبة للتشريعات التي تعتمد على عوامل متغيرة باختلاف مستوى الالتزام الأخلاقي عند البشر».

يشعر الذين يزورون السعودية من وقت لآخر بالقدر الكبير من الالتزام بالأسعار الرسمية، الذي بات يسيطر على السائقين والسيارات بعدما كانت هذه الأسعار تقفز قفزات خرافية في أوقات المواسم المختلفة.

(٣٥)

لا تخطئ العين مدى الثراء السعودي على مستوى جميع الطبقات، فالمبيعات السعودية في كل المجالات والمجمعات التجارية وحركة السوق تنطق به، بل إن هناك مقاييس لا يمكن أن تتجاوزها العين من قبيل كثرة العبوات الفارغة التي اشترى الناس ما كان فيها، ومن كثرة مكعبات الفبر الحافظة التي كان محيطة بالأجهزة المبيعة.. إلخ.

وقد خطر لي أن أتأمل أحوال العاملين في بعض الصناعات الوسيطة هنا، وأجور العاملين فيها، وما أن أتيحت لي رؤية مطبعة صغيرة حتى ابتدرتهم بالسؤال عن أسعارهم، وهأنذا أسرد إليك الأسعار مقارنة بمصر بعد تحويل الجنيه المصري (١٩٨٩).

• يتكلف جمع الملزمة الواحدة (١٦ صفحة) هنا ما قيمته ٥٠٠ ريال (في مصر حوالي ٣٥٠ جنيها)، وأفلاما ١٦٠ ريالا (في مصر ٣٢ جنيها).

• والورق هنا ليس بالرزمة كما في مصر وإنما بالباكو، والباكو هو نصف الرزمة (التي في مصر) لأنه يضم ٢٥٠ فرخا، على حين أن رزمة مصر ٥٠٠ فرخ، ويبلغ ثمن الباكو السعودي من الورق ثمانين جرام حوالي ٥٦ ريالا سعوديا، وهو ما يعني أن سعر الفرخ الواحد ١٠٠ × ٧٠ = ريالين وربع ريال، أما الورق الكوشيه ٢٥٠جم فيبلغ ثمن الفرخ منه تسعين هللة، أي تسعين في المائة من الريال، وهو تقريبا نفس سعر الفرخ في مصر أو أقل منه.

• ويبلغ ثمن لوح الزنك هناك خمسين ريالا للزنك مقاس ٥٠ × ٧٠ وخمسة وسبعين ريالا للزنك مقاس ١٠٠ × ٧٠.

• وتبلغ تكلفة طباعة الملزمة الواحدة (ثلاثة آلاف نسخة) ٢٥٠ ريالا للزنك الصغير و٣٠٠ ريال للزنك الكبير.

• أما فصل الألوان بالليزر فإنه هنا أرخص منه في مصر، إذ يحاسبون على السم المتربع الواحد بخمسة وخمسين هللة فقط.

(٣٦)

ويمكن فهم مدى الاختلاف البيّن في هذه الأسعار ما بين مصر والسعودية على ضوء فهم عدة عوامل:

أولها: أن العامل البشري في مصر لا يزال أقل تكلفة (حتى مع أنه أقل جودة)، وسوف يظل هذا الحال فيما يبدو مرتبطا بمستوى الدخل القومي ومتوسط الدخل القومي للفرد، وهذا يفسر انخفاض سعر الجمع التصويري في مصر.

ثانيها: أن الآلات في مصر لا تزال أكثر تكلفة بحكم ما يدفعه أصحابها عليها من الضرائب والجمارك، وهذا يفسر لماذا ينخفض على سبيل المثال سعر فصل الألوان هنا في السعودية عن مصر، حيث تجد المطابع التي تورد لها هذه الأجهزة في مصر مضطرة إلى انتهاج سياسات تسعيرية تكفل لها الوفاء بثمن جهاز فصل الألوان، الذي يبلغ ثمنه في المتوسط مليون جنيه مصري.

الفصل الرابع

لقطات سريعة من رحلة يمنية قصيرة

٢٠٠٦

(١)

لست أكشف جديدًا إذا قلت إن الشعب اليمني يحب مصر والمصريين إلى حد الجنون، وإنه ذو فضل على مصر والمصريين إلى درجة التعود، وأنه يغفر لمصر والمصريين إلى درجة النهاية، على الرغم من أن غيره لا يغفر، وأنه يقدر مصر والمصريين إلى درجة التقديس، على الرغم من أن غيره لا يقدر.

ولست أزعم غير الحقيقة إذا قلت إن الشعب اليمني لا يعتبر مصر وطنًا ولا شعبًا مختلفين عنه، وإنما هو يرى العلاقة رؤية نموذجية لا يراها إلا شعب عروبي مسلم إلى أقصى ما يمكن من العروبة والإسلام، لكننا في مصر للأسف الشديد لا نعرف المحبين الحقيقيين.

لست أنكر أيضًا أننا في مجموعنا كمصريين لا نكتشف إلا بالصدفة وحدها أن الشعب اليمني شعب عريق ومتفوق، وأنه شعب طيب، مكافح، حريص على وطنه، وعلى تراثه.

(٢)

أستطيع أن أضيف إلى هذا حقيقة اجتهاد هذا الشعب وميله إلى أن ينجز شيئا ذا بال في حياته التنموية والسياسية.

فهذا الإقبال الكبير من الفتيات اليمنيات صغيرات السن على أن يشاركن في العملية

الانتخابية لا يعني إلا أن التربية السياسية والمدنية حتى وإن كانت شكلية في مقصدها قد آتت ثمارها الحقيقية في هذا الشعب متغلبة على السلبيات التي كان يمكن لها أن تنتشي وأن تزدهر، ولا يمكن أن يكون مثل هذا التوجه قد تحقق في شعب منصرف عن مستقبله وعن وطنه وعن تنمية هذا الوطن وهذا المستقبل.

وسواء أتحققت هذه التنمية السياسية برضا الحكومة أم بغير رضاها فإن النتيجة واضحة وواحدة، وهي أن الأجيال الجديدة أقرب ما تكون إلى أن توصف بأنها مسيسة تمامًا.

(٣)

والواقع أن اليمنيين عانوا على مدى السنوات الماضية من أكثر من صورة من صور الصراع الفكري الذي تأثر بالطبع بتجارب اليمنيين في تولي شئون أنفسهم، ونحن نعرف أن رجال ثورة ١٩٦٢ اختلفوا فيما بينهم كثيرا وتنازعوا كثيرا، وبلغ الأمر بنزاعهم وخلافهم ما يبلغه هذا الانقسام في العادة من الحرص على منع الحرية عن الزملاء والشركاء من خلال سياسات (مناهضة للحرية، ولحرية التعبير على وجه الخصوص)، كان منها الاعتقال والسجن.

ولست أحب لهذا الفصل بأي حال من الأحوال أن ينساق في الحديث عن اليمن التي عانت من مخاض صعب ثم من وليد صعب، ثم من أكثر من مخاض وأكثر من وليد، لست أحب هذا لسبب جوهري؛ هو أننا لو فتحنا هذا الطريق لاحتجنا إلى ألف صفحة على الأقل.

لكننا لا نكاد نصدق أن النظام الناصري كان وراء هذه الخلافات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولا يقتصر الأمر علينا وإنما يمتد ليشمل اليمنيين أنفسهم الذين لا يزالون ينظرون إلى الدور المصري في اليمن نظرة لا تخلو من دراسة أثره النفسي الخطر بل القاتل في عشاق السلطة والميالين إليها، وهو أثر عوّق التنمية في اليمن وعوّق تربيتها السياسية، كما عوّق تحررها من روح القبلية والاحتشام.

(٤)

نعرف كذلك أن اليمن ظلت تفكر في توجهات سياسية متعددة حتى تمكنت من

أن تصل على مضض واضح، من العرب ومن الغرب على حد سواء، إلى هذا الطريق الذي يمكن أن يقود إلى النهج المتوازن.

لكننا لا نستطيع أن نخفي حقيقة إحساس اليمنيين بالخوف على هذا التوازن الهش أن ينفرط عقده لسبب أو لآخر.

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل مدى حساسيتهم لصراع الآراء، ونستطيع في المقابل أن نتصور مدى إحساسهم بالخطورة التي يمكن أن تترتب على محاولة فرض الآراء الفردية عن الأوضاع المتأزمة من خلال القوة.

لهذا فقد كان توجه اليمنيين إلى ممارسة صورة من صور الصراع الديمقراطي من خلال الأحزاب والانتخابات بمثابة ما يمكن وصفه (على نحو ما فهموه) من أنه بالفعل البديل النموذجي الذي لا بد من التضحية من أجله، وفي هذا إنجاز كبير، إذ لم يكن من السهل على مجتمع مبالغ في إيمانه بمعتقداته أن يتقبل فكرة الرأي الآخر على هذا النحو الديمقراطي الذي يتطلب قدرا كبيرا من التسامح.

ومع هذا فإن تجربة شعب اليمن وشبابه في السنوات القليلة الماضية تبدو مبشرة بالخير في هذا الاتجاه.

(٥)

كان المتشيعون للرئيس علي عبد الله صالح يرون فيه صورة تجعله في العقدين الأخيرين (وهو الذي تولى الحكم في ١٩٧٨) شبيها بمحمد علي في مصر، (أكتب هذه السطور معبرًا عن الواقع الذي استمعت إليه، مع أني لست من المغرمين بمحمد علي ولا بتجربته ولا بشخصيته ولا أثره)، حيث اجتمعت الزعامات الوطنية على الاتفاق على أنه بمثابة الرجل القادر على الاضطلاع بمسئولية وطنه الذي مزقته الخلافات بين زعامات متعددة.

والواقع أن في هذا التشبيه جزءًا كبيرًا من الحقيقة، وربما كان الدليل على هذا متمثلا في أننا لا نكاد نذكر أسماء الرؤساء الذين سبقوا علي عبد الله صالح لفترات قصيرة، على نحو ما أننا لا نستطيع ذكر أسماء الولاة الذين تعاقبوا في الفترة القصيرة

التي سبقت مدة عهد محمد علي في حكم مصر، وذلك على الرغم من أن من بين هؤلاء قامات عسكرية ووطنية عظيمة.

ويبدو لي بوضوح أن فترة الخلافات هذه هي التي شكلت الوعي السياسي لعلي عبد الله صالح (على الرغم مما يعتريه من نقص وعيوب واضطراب)، وهو الوعي الذي مكّنه من أن يحقق ما حقق حين تولى رياسة اليمن، بينما لم يكن قد وصل في رتبته العسكرية أو تاريخه العسكري إلى درجة مميزة أو متميزة.

(٦)

مع هذا الذي عبرت عنه بما أعتقد أنه وضوح وإنصاف، فإني لأسباب قومية وعقيدية كنت (ولا أزال) لا أكاد أساوي بين كل إنجازات علي عبد الله صالح، وعندي أن واحدا فقط من هذا الإنجازات يكاد يفوقها جميعا مع اعترافي ببقية إنجازاته، وكنت ولا أزال أعتقد أن إنجاز علي عبد الله صالح البارز يتمثل في قدرته التي تجلت في صيانة الوحدة اليمنية وفي الحفاظ عليها.

وربما أن الحفاظ على الوحدة يفوق بمراحل قدرة الرجل على صناعة الوحدة، وصياغة ميثاقها، ذلك أنه لولا الوقفة الشجاعة التي وقفها علي عبد الله صالح ضد فصائل الانفصاليين لتحولت الوحدة نفسها إلى سحابة صيف عابرة.

وقد كان هذا ممكن الحدوث بالفعل لو أن علي عبد الله صالح آثر الانكفاء على نفسه وإراحتها من عناء الحفاظ على الوحدة، وهو عناء انتحاري كان كفيلا بأن يفقده موقفه الرئاسي وموقعه الرئاسي أيضًا.

وقد كنت ولا أزال حتى الآن أقول إن علي عبد الله صالح تفوق على جمال عبد الناصر في تلك اللحظة.

وربما أن علي عبد الله صالح كان في زمن تعرضه لمحنة الانفصال أنضج تجربة من عبد الناصر على الرغم من هالات التمجيد (الأكثر) التي تحيط باسم عبد الناصر وتجربة عبد الناصر، لكن الإنصاف والأمر الواقع يعطيان علي عبد الله صالح تفوقًا غير منكور في تلك اللحظة التي قرر فيها الحفاظ بالسلاح على وحدة الوطن الذي كان

يرأسه، حتى مع كل مواقفه التالية، حتى وإن اضطرته الظروف النفسية (بحكم قصور نظرة الإنسان وطغيان الأنانية) فيما بعد إلى أن يلجأ لتدمير إنجازه القديم.

(٧)

تحفل اليمن بجنسيات متعددة تقيم وتعمل فيها، ويبدو هذا غريبًا بالنسبة للمصريين الذين ظلوا لعقود طويلة يحتكرون الوظائف الموجودة على أرض وطنهم، من منطق أنهم أولى بهذه الوظائف من الأجانب.

ولو قسنا على هذا قياسًا منطقيًا فاليمنيون أولى، لكن عيوننا ترى على أرض الواقع غير ذلك، وعلى سبيل المثال ففي مطعم الفندق فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، لم تبلغ العشرين بعد، لا تبدو عربية ولا مسلمة ولا شرقية، لكنها تحمل اسم «نادية»، سألتها عن وطنها فقالت إنها من تركمنستان، وأن اسمها مختلف تمامًا عن ذلك الاسم المكتوب على البادج، لكنهم لم يصنعوا لها بادجا خاصًا باسمها بعد، ومن ثم فإنهم أعطوها هذا البادج بهذا الاسم، ألا تري أن هذا يمثل طرفة من الطرف.

وهي لم تقض في هذا الفندق إلا ثلاثة أسابيع، لكنها مع هذا لا تستطيع أن تقول إنها لا تشعر بالسعادة في اليمن.

تعاقدت هذه الفتاة على العمل مع «شيراتون صنعاء» لمدة عامين، لكنها تردف فتقول: إن بوسعها أن تنهي العقد في أي وقت تشاء، ومن العجيب أنها تعاقدت على راتب بثلاثمائة دولار فقط، جاءت من أجله من آخر بلاد الدنيا (كما يقولون)، لكنها مع هذا تؤمن أنها تستطيع أن تجد فرصتها البديلة والرائعة في العمل هنا أو هناك.

هذا مثل بسيط أردت أن أصور لك به حالة القوى العاملة اليمنية ٢٠٠٦، ولك أن تبني عليه بقية الصورة.

(٨)

أنتقل بك إلى الحياة وصورها المتعددة والمتجاذبة مع الحقيقة والطبيعة على أرض اليمن.

لعل أطرف موقف صادفني في هذه الزيارة هو ما حدث في فندق «شيراتون صنعاء»، حين كنت انتهي من إجراءات التسجيل هناك، ذلك أنهم عندما أعطوني مفتاح حجرتي وقالوا إنها في الطابق السادس، سألت عن مكان المصعد فقالوا وهم يبتسمون: لا حاجة إليه على الإطلاق، فتعجبت.

ولكن سرعان ما اكتشفت أنهم على صواب، لأن الحجرة في نفس الطابق، ولهذا فإنهم ضحكوا ضحكة العارف بالمفارقة، وقالوا لا تعجب فأنت في الطابق السادس الذي يقع فيه الاستقبال، وتحتنا خمسة طوابق وليس فوقنا هنا إلا طابقان آخران.. هذا هو فندق «شيراتون صنعاء».

لا يخلو تأمل البناء الهندسي والمعماري للفنادق من داخلها من تحصيل بعض الفائدة عن التجارب الهندسية، فهم في هذا الفندق تغلبوا على مشكلة سطح الصرف الصحي في دورة المياه بأن جعلوا «البانيو» وحده أعلى من مستوى سطح الحمام كله، وهكذا فإنك حين تخطو إلى البانيو تفاجأ بأنه في مستوى أعلى مما تخيلته موازيا لسطح الأرض، وهو حل جيد يكفل أن يكون للبانيو صرف صحي خاص به، دون أن يجعل أرضية الحمام نفسها على مستويين مختلفين، على نحو ما نفعل في بعض مبانينا في القاهرة.

ونعود إلى سياق المفارقات الطريفة لنجد أن مطعم الفندق الذي نتناول فيه الإفطار يفتح أبوابه في الدور الرابع، لكننا لا نصل إليه بالمصعد، وإنما نصل إليه عبر ردهة الطابع الرابع بسلم حلزوني يقود إلى المطعم ويمر بدورات المياه الملحقة بالمطعم في الدور الخامس.

وبالفندق مطعم آخر في خيمة خارجية بجوار باب الفندق، لكن مناضده بحكم تشابهها المقصود بمناضد النوادي الليلية والملاهي يبدو لي أقرب إلى الكآبة، وهو يعرض برنامجا فنيا لست أحب أن أراه، لأني كنت ولا أزال أكره اقتران هذا بذاك على النحو الشرقي البغيض إلى علوم الصحة.

(٩)

تجولنا في مدينة صنعاء جولات عديدة أكدت لنا عظمة هذه المدينة على مدى

تاريخها، كما أكدت لنا مدى الظلم الذي تعرضت له في السنوات الأخيرة أو في العقود الأخيرة، فقد اكتظت المدينة بالسيارات والأتوبيسات، مع أن الطرق لم تتأهل لهذا بما فيه الكفاية.

وتحملت المدينة بناء الكباري، دون أن تعنى الحكومة بالمنظر العام ولا بالطبيعة الخاصة.

وتكدست الأسواق بمنافذ البيع دون أن تحظى بدرجة موازية من جعل هذا الرواج عنصر جمال بدلًا من أن يكون عنصر ضغط فحسب.

وهذه هي نوافذ التجارة في تلك المدينة التي سماها العرب بهذا الاسم تقديرًا منهم لانتشار الصناعة فيها، حتى إنها أصبحت معقلًا من معاقل الصناعة في العالم الإسلامي كله، وربما وصلت إلى المكانة الأروع في هذا الميدان.

تخلو المدينة من إدعاءات البذخ في العرض التجاري، وفي التحدث عما تقدمه لمواطنيها أو لزائريها، لكنها مع هذا تقدم كل شيء، وتفعل هذا بتواضع لم أر له مثيلًا في أي مدينة أخرى في العالم.

هذا السوق التقليدي أعظم من أن يكون سوقًا قديمًا في تاريخه وعمره فحسب، لكنه يمارس التجارة في كل شيء، ويعرض كل شيء، ويرحب بكل زائر، وينتهي سريعًا من كل متعامل.

(١٠)

يجمع البشر جميعًا وبلا مبالغة على أن أهل اليمن لا يقلون إتقانًا للتجارة وحبالها ومهاراتها وتكاملاتهاعما نعرفه عن أهل الحجاز، الذين يمارسون تجارة واسعة بحكم موسم الحج، لكن تجار اليمن يمارسون تجارة لا تقل حجمًا ولا موضوعًا عن تجارة أهل الحجاز.

وتكتشف أن اليمن تملك علاقات حيوية واسعة لا يملكها غيرها، فهي منفتحة انفتاحًا تامًا على شرق أفريقيا بما فيه من دول الصومال وأرض الصومال وجيبوتي والحبشة وأرتيريا والسودان وأوغندا وكينيا. ثم هي منفتحة انفتاحًا ذا طبيعة خاصة

على الخليج العربي، وهي بعد ذلك منفتحة أيضًا من حيث لا يدري العرب على شبه القارة الهندية بكل شعوبها وأجناسها، وهي بعد ذلك منفتحة أيضًا على إيران وما تمثله إيران.

وفي كل هذه الأسواق والشوارع والواجهات يتعرف اليمنيون على المصريين من لهجتهم ويرحبون بهم ترحيبًا خاصًا، ويتحملون ما يمارسه المصرين من تصنع للمهارة في الشراء، وهم يضحكون من هؤلاء الذين جاءوا لتسويق المياه في شوارع أهل السقاء، متصورين أن هذا الإجهاد الظاهر على بعض الوجوه يعكس مصيرًا محتومًا لليمنيين، بينما الأمر لا يعدو أكذوبة وصلت إلى مرحلة الأسطورة.

فاليمن سيعود كما كان من قبل.. اليمن السعيد.

(١١)

بعد منتصف ليلة الأربعاء مساء انتابتنا موجة من السعادة حين علمنا أن الترتيبات قد اتخذت لنتحرك في الصباح الباكر (السادسة صباحًا) إلى مدينة عدن.

هكذا كان عليّ أن أجهز حقائبي قبل النوم، وأن أطلب من الفندق أن يوقظوني في الخامسة والنصف، كنت على وشك النوم وكنت أحس بالنوم يداعب جفوني أو ينتصر عليها، لكن نبأ السفر جعلني أبدأ قلقا لا مبرر له، هكذا لم أستطع النوم قبل الثالثة صباحا.

وفي الصباح توجهنا إلى المطار، عبر طرق تكاد تكون خالية من المارة أو السيارات.. وصالة المطار أصغر بكثير من موقف عبود (موقف سيارات الأجرة في طرف مدينة القاهرة)، وربما أن المطار كله أصغر من موقف أحمد حلمي القديم (الذي كان يؤدي وظيفة موقف عبود قبل وجود موقف عبود نفسه).

هكذا أدركنا حجم المطار الحقيقي ونحن في هذا الصباح الباكر، وربما أننا لم نكن لندرك صغر هذا الحجم لو أننا قدمنا له في ساعات الذروة حين لا يمكن لإنسان أن يعرف الطول من العرض ولا البداية الأولى من البداية الأخرى (ولا أقول البداية والنهاية).

وأغلب المسافرين يمنيون يتحركون في رحلات داخلية.

(١٢)

ولم نكتشف إلا بعد أن توقفت الطائرة وهبط كثير من ركابها أن هناك محطة طيران أخرى في طريقنا أسبق من وجهتنا، وأن الطائرة تمر بمدينة «سيئون»، ويهبط فيها ركاب ويصعد منها ركاب آخرون قبل أن تتوجه إلى عدن.

ولم يكن من المفروض بالطبع أن نكتشف هذا، لأن مثل هذه الحقيقة لا تسجل في تذاكر الطيران، فالتذكرة عادة ما تذكر لك وجهتك دون الإشارة إلى التوقف في الطريق، ولا يكاد الإنسان في ظل الصورة الذهنية المرسومة عن اليمن يتصور أن الطريق بين العاصمتين صنعاء وعدن يمر بمدن كبيرة ومطارات صغيرة.

و«سيئون» إحدي مدينتين حضرميتين تتمتعان بخدمة الطيران المدني، ومطارها أصغر بكثير من مطار صنعاء، الذي هو صغير، وإذا كانت صالة مطار صنعاء أصغر من موقف عبود كما قلنا، فإن مطار «سيئون» كله أصغر بكثير من ذلك الموقف، وقائد الطائرة مضطر إلى أن يهبط ويقلع من مثل هذا المطار الصغير معتمدا على المناورة في ممر طويل ينتهي منه ثم يلف فيه ليعود إلى الإقلاع منه.

(١٣)

لست أبالغ إذا قلت إن حركة الطائرات في هذا المطار تسير على نحو عبقري، فهي كذلك فعلًا وليس هناك أي عصبية أو تشنج، والبساطة والتبسط هما سيدا الموقف، ولعل في هذا دليلًا واضحًا على أن دولة اليمن تنتظر مستقبلًا زاهرًا، لو أنها وجدت من زعاماتها من يؤّمن هذا المستقبل على نحو أو آخر.

والحق أني متفاءل لليمنيين، واليمن، وباليمنيين، واليمن، وإن كنت أدعو سبحانه وتعالى أن يهيئ لهم من أمرهم رشدًا وأن يكفيهم شر العرب، فهو الشر الأبرز فيما يهددهم.

هكذا كانت عقيدتي حين زرت اليمن، وهكذا لا تزال عقيدتي اليوم وأنا أراجع التجارب المطبعية لهذا الكتاب في ٢٠١٦، بعد أن مرت مياه كثيرة تحت الجسور.

(١٤)

ومع أن الصورة العامة التي صورتها السياسات الاستعمارية (ثم العسكرية) عن اليمنيين أنهم مشغولون بالقات، إلا أن في هذه الصورة ظلمًا كبيرًا شبيهًا بالظلم الذي يطلق على دولة أوروبية عظيمة، بالقول بأن شعبها مدمن للكحول، وأن قلة قليلة من شعبها لا تبلغ العشر يتحملون الباقين بإنتاجهم وعملهم.

والواقع أن الصورة على حقيقتها تنتصر لليمن على أي دولة أوروبية، من حيث استطاعت أجيالها الانتصار على تغييب العقل، وسيرى العالم من أجيال اليمن القادمة ما سوف يبهره إبهارًا لم يتوقعه.

لكن العرب أصبحوا (بحكم التكرار الاستعماري والعسكري للأكاذيب) يحبون ظلم أنفسهم، فالذي يرى اليمن من داخلها يرى نشاطًا كثيفًا وعملًا متواصلًا وإخلاصًا في العمل وحرصًا على الإنتاج والكسب والتنمية والتقدم.

واليمنيون بسطاء لكنهم منتجون، وهم متمسكون بالتقدم الحضاري حريصون عليه، لكنهم لا ينفصلون عما يعرفون أنه القيم الكلاسيكية الحافظة لهم، والتي يرونها تدفعهم ولا تعوقهم. وتري نساءهم ورجالهم ملتزمين بآداب الدين الحنيف والطابع الشرقي.

وإذا كان هناك إنصاف في هذا العالم فإن أولى الظواهر الاجتماعية الكفيلة بالدراسة فيما يتعلق بتاريخ اليهود المعاصرين، ينبغي أن تكون دراسة حفاظ يهود اليمن على هويتهم في هذا البحر المتلاطم الأمواج من حولهم.

(١٥)

أحب أن أتحدث بسرعة خاطفة عن كثير من صدى حضارة اليمن فيما شاهدته من الإنجازات الهندسية التي بقيت لليمن من عصورها الخالية، وهو حديث قصير جدًّا، لكنني معنيّ فيه بأن أذكّر بأن الإنجازات الهندسية في حضارة اليمن تفوق أي إنجاز هندسي في أي حضارة أخرى.

يكفي أن أذكر ما رأيناه في خزان من خزانات المياه التي يمكن تسميتها بالخزانات القومية الكبرى، فنحن أمام معجزة باقية من بناء معماري وظيفي ذكي، وأمام تآزر

ذكي للمباني المرتبطة ببعضها ارتباطًا ميكانيكيًا على أدق مستوى من العلم والتقنية، لأنه ارتباط يحسب حساب كل قوانين الحركة واستطراق الماء من جزء إلى آخر في خزان عظيم كان كفيلًا بأن ينقذ اليمن من كل صور الجفاف التي قد تعتري البيئة وتهدد الزراعة والحياة، وقد نجح بالفعل في ذلك.

وبلاد المسلمين حافلة بمثل هذه الإنجازات الهندسية لكنها لم تصل بعد إلى الشوفونية في حديثها عن نفسها، ولا إلى المباهاة والفخر، وإنما هي تعيش الهدوء والثقة في تعاملها مع ماضيها الجميل الذي لا يزال يشرق.

وهنا لا بد أن أشير بفخر إلى نفقين للسيارات محيطين بعدن، ومحفورين في الجبل على طريقة أنفاق النمسا وسويسرا، وقد حفر هذان النفقان العظيمان في عهد الاستقلال، ومن الطريف أن أحدهما قد حفر بمعونة من ألمانيا الشرقية، وحفر الآخر بمعونة من الصين الشعبية!

(١٦)

لا أستطيع أن أغفل الحديث عن عدن وأهل عدن ومشاعر أهل عدن، فأهل عدن يشعرون شعورًا جميلًا مزهوًا بالوحدة اليمنية القائمة ويشعرون بما قبل الوحدة من الضياع الماركسي، وأنا أقول هذا وأجري على الله، غير خائف ولا وجل من الماركسيين العرب، الذين مارسوا كل السفسطة في اليمن الجنوبية، حتى أوصلوها إلى ما تصل إليه كل دولة تمارس السفسطة الماركسية دون أن تمارس الإنجاز الماركسي.

وهم (أي أهل عدن) يؤرخون بها (أي للوحدة) لكثير من الأحداث، فهذا المبنى من قبل الوحدة، وهذا الطريق من بعد الوحدة.

وأهل عدن وأهل الجنوب يشعرون بيمنيتهم، ولا يشعرون أن شيئا يمكن أن يحول بينهم وبينها. وهذا في نظري هو قمة الشعور الوطني الذي لم يصل أحد فيه من العرب إلى ما وصل إليه العدنيون والحضرميون.

وهم يدركون أن الإنجليز قد سيطروا على بلادهم بالظلم والاستغلال مائة وثلاثين عاما، ولهذا فمن الطبيعي أن تكون هناك بعض الأسماء الإنجليزية لبعض مناطق

مدينتهم، وعلى سبيل المثال فإن منطقة مهمة من السوق التجارية تحمل اسم «كريتر»، وإحدي دور السينما في هذا الحي تحمل اسم بريطاني آخر.. وهكذا.

(١٧)

ولا تزال عدن بمثابة مركز تجاري عظيم رغم ما فعلت بها دبي عن قصد.

وإذا قارنت الأسعار في سوق عدن بالأسعار في صنعاء القديمة وجدتها على وجه العموم توازي الضعف، وربما تتعجب لمعلوماتك التاريخية (التي أصبحت تاريخية فحسب، حين تدرك أنها معلومة تاريخية ليس إلا، وأنه لم يعد يربطها بالواقع المعاش إلا ما توحي به دلالة الذكرى)، فقد كانت عدن في الستينيات بمثابة أرخص مركز تجاري في العالم، وكان بوسع الدولار الواحد أن يشتري شيئا ذا قيمة، وكان هذا بحكم موقعها الاستراتيجي كنقطة ترانزيت مهمة، لكن تطور التاريخ وصراعات القوى جعلها تفقد هذه الميزة التاريخية وتتحول إلى مدينة عادية تعاني من أرباح التاجر والتاجر الكبير والموزع والمورد... إلخ.

وإذا كان لا بد من شيء من السياسة في هذه الرحلة، فإن نكبة عدن تمت على يد دبي أو لمصلحة دبي أو بسبب دبي، وتستطيع أن تختار الصياغة التي تناسبك، لكن هذا ما حدث.

(١٨)

وكما هي الحالة التي أشرت إليها سريعًا في حديثي عن صنعاء فإن مدينة عدن تحظى الآن بعمالة أجنبية ذات وجود ملحوظ في الفنادق وفي غير الفنادق.

وأهل الهند ذوو حظ تاريخي مع اليمن، وهم يحبون اليمن، واليمن يحبهم أيضًا، ووجود اليمنيين في عدن ملحوظ، حتى ولو لم يكن كثيفًا، وهم يعرفون كل شيء عن الطعام العربي، وعن طريقة طهيه، ويتحدثون الإنجليزية الهندية بطلاقة، ويطعمونها بالمفردات العربية الاصطلاحية، كالحديث عن سلطة الحمص المهروس، أو عن الخبز المخبوز لتوه في التنور(الفرن)... وهكذا.

لكن السؤال الأهم هو هل تعمل اليمن سريعًا على تطوير تأهيلها لشبابها ليقوموا بهذه الوظائف الكثيرة المتاحة في المستقبل والحاضر؟ هنا ينبغي أن نفهم الدور الحقيقي لمنظمات المجتمع المدني، والدور الحقيقي للقطاع الخاص والفردي.

(١٩)

وإذا كانت عدن على مر التاريخ بوابة لما ورائها من كل ناحية فإنها (كما علمنا التأمل في التاريخ) اكتسبت أهمية متضاعفة بعد افتتاح قناة السويس، وبما أننا في ظل مشاعرنا الشوفونية في مصر لا نفهم من قناة السويس إلا ما يأتينا من عائدها، فإننا لا ندرك أن لعدن واليمن ارتباطًا بالقناة وحفر القناة وتاريخ القناة وتوقف القناة ثم إعادة تشغيلها.

على أن الحقيقة التي لا تقل أهمية أن لقناة السويس أثرًا كبيرًا في تبديل الأهمية النسبية للموانى في شرق العالم، ويكفي على سبيل المثال أن أذكر للقارئ أنه قبل انقسام الهند إلى باكستان والهند كان ميناء كراتشي الهندي (حيث لم تكن باكستان قد وجدت) يتفوق على ميناء بومباي الهندي (الذي أصبح الآن بفضل حب الهند لماضيها الهندي وتجنبها لماضيها العربي مومباي)، لسبب واحد هو أنه أقرب منه إلى قناة السويس بمائتي كيلو متر، فما بالك بعدن!

لكن سيطرة الشيوعية في فترة ما على عدن صبت أتوماتيكيًا في صعود دبي، بل ربما في وجود دبي، كما يحب البعض أن يقول.

وظني أنه سيأتي وقت قريب يكتب فيه تاريخ الجنوب العربي والإمارات على نحو يكشف عن الصراع الفكري والعقائدي الذي دارت رحاه على هذه الأرض الطيبة فآذاها على نحو لم يؤذ به صراع فكري أرضًا من قبل.

وإذا كانت أمريكا قد خلفت فرنسا بقوة في فيتنام وما حولها ومرت تلك المنطقة بالصراعات العسكرية القاسية، فإن منطقة الجنوب العربي والإمارات كانت ضحية للتجريب الماركسي في تخريب العقول ومعاداة الدين، وتزييف الواقع.

ومن المدهش أن وسائل الماركسية في هذا العبث لم تكن ماركسية منضبطة، وإنما كانت تجربة مشوهة جعلت من إحدى البؤر في هذه المنطقة قابلة لأن تؤدي

دورًا كمركز للفرقة والتخريب، ويسندها في هذا الدور ثروة متنامية تعطيها من النفوذ أكثر مما تملك من الغرور.

(٢٠)

وإذا كان لا بد من واقعة أختتم بها، فقد كان أكثر الأمور مدعاة للسعادة المرتبطة بالراحة في هذا المطار الصغير في نظري (أو نظر القراء) أن سيارة خاصة جاءت واصطحبتني من باب الطائرة مباشرة بناء على ترتيب كريم، وبينما أنا أهم بركوبها وجدت باب العفش في الطائرة قد انفتح في سرعة لم اشهدها من قبل لكنها سرعة طبيعية مكتسبة من التدريب على عمل روتيني غير ضخم، وبدأت عملية نقل الحقائب إلى السيارات التي تذهب بهم إلى أماكن تسليم الحقائب، فطلبت إلى سائق السيارة الخاصة أن يتوجه إلى حيث تخرج الحقائب وأخذت حقائبي قبل أن نذهب إلى صالة الوصول وإلي السير.

وهكذا خرجت من بوابة المطار بعد دقيقتين من وصول الطائرة إلى أرضه. وكانت هذه بالطبع تجربة استثنائية في حياتي ورحلاتي.

خرجت منتشيًا بهذه السرعة الاستثنائية، لكن سرعان ما فوجئت بحرارة استثنائية، فمع أن درجة الحرارة في عدن أربعة وثلاثون، فإن الإحساس بها أعلى من هذا بكثير بسبب الرطوبة، وبسبب القرب من سطح البحر.

هأنذا قد ابتعدت بك في هذا الفصل، ودون أن أقصد، عن التجارب الشخصية التي لا بد من قدر كبير منها فيما يرويه الإنسان عن رحلته، ورغم أن الفصل كله يبدو وكأنه تجربة شخصية فإن وقائعه قليلة، بسبب عدد الأيام القليلة التي أتيح لي فيها شرف زيارة اليمن، والسعد بزيارة اليمن، بل واليمن بزيارة اليمن.

المياه المعدنية تلخص معركة الرياسة اليمنية

اليوم يوم «حِدة» لا «الشملان»..

(١)

بدت العاصمة اليمنية صنعاء في حالة هدوء التكوين الربيعي، حتى وإن لم يكن في الربيع، وهو التكوين الذي يعقب الغليان والفوران والتفاعل الإيجابي مهما كانت درجة حدته.

وفي صباح مشمس جميل وجو لطيف بدأت الجماهير تتوافد على مقار اللجان الانتخابية للدوائر المحلية التي بلغ عددها ٥٦٢٠ في ٣٠١ دائرة انتخابية برلمانية، وقد وصل عدد المسجلين من الناخبين إلى تسعة ملايين و٢٤٧ ألف ناخب وناخبة.

كنا، معشر الضيوف، قد سبقنا الرئيس اليمني إلى اللجنة الانتخابية التي سيدلي فيها بصوته، تم هذا بالطبع بترتيب رئاسي، وفي تمام الساعة التاسعة وخمس دقائق قدم الرئيس علي عبد الله صالح إلى الدائرة التي سيدلي فيها بصوته الانتخابي حسب كشوف الاقتراع المعدة سلفًا، هذه اللجنة الانتخابية التي تضم الرئيس بين ناخبيها هي اللجنة الفرعية رقم (١) في الدائرة المحلية رقم (١٠)، وهي دائرة «حِدة».

من الطريف أن هناك نوعًا شهيرًا من المياه المعدنية الشهيرة في اليمن يحمل اسم «حِدة»، وهو اسم دائرة الرئيس، وهناك نوعًا آخر يحمل اسم «الشملان»، وهو أيضًا اسم المرشح المنافس للرئيس.

وقد شاع بين جموع اليمنيين المؤيدين لاستمرار الرئيس علي عبد الله صالح في منصبه تعبير مركز يعبر عن توجهاتهم في تأييد الرئيس، ويقول التعبير اليمني المعاصر: «اليوم يوم حدة وليس يوم شملان»، وبهذا التعبير تبلورت اتجاهات أولئك الذين يريدون التعبير عن امتنانهم للرئيس الذي عاشوا معه وتحت رياسته لأكثر من ربع قرن.

(٢)

تقع اللجنة الانتخابية التي قدمنا إليها وأدلى فيها الرئيس بصوته في مقر المعهد التقني الصناعي بحدة، وهو ما يذكرنا بدائرة مماثلة في القاهرة هي دائرة المعهد الفني بشبرا، ورغم أن المعهد الفني في شبرا تحول إلى كلية هندسة شبرا فإن الدائرة التي تحمل اسم المعهد الفني لم تغير اسمها، وربما يحدث هذا أيضًا في اليمن التي تحمل كثيرًا من سمات التجربة السياسية والإدارية المصرية بحكم مودة الشعب العربي الواحد في القطرين.

جاء الرئيس اليمني المرشح للاستمرار في الرياسة إلى المقر الانتخابي في سيارة «ليكساس» من طراز ٤٧٠، تحمل رقمًا غير مميز وهو ٤٠٢٧٤، وطبقًا لنظام الانتخابات الرياسية والمحلية بدأ الرئيس في تعبئة أو تسويد الاستمارات الثلاث التي تحمل كل منها لونًا مميزًا يسهل العمل على المسئولين عن العملية الانتخابية، ويسهل عمليات فرز الأصوات وتجنيب كل تصويت لانتخاب ما في صندوقه:

- الرئاسة: اللون الأبيض.
- المجالس المحلية: اللون الروز.
- المجالس المديرية: اللون الأصفر (وهي نطاق أوسع من المحليات على نحو ما هو معروف في تجارب المجالس المحلية الشعبية في مصر التي تنقسم إلى ثلاثة مستويات وليس إلى مستويين فقط كما في اليمن).

(٣)

على الرغم من حيوية التجربة اليمنية، وهي حيوية البدايات الجديدة، فإن أحدًا لا يستطيع إنكار هذا النظام اللافت للنظر الذي يرجع في جزء منه إلى تخطيط جيد اهتم اهتمامًا حثيثًا بأن يراعي تجنب آثار التدافع والآثار الخطرة التي يمكن أن تحدث نتيجة التكدس، على نحو ما حدث في الأيام التي شهدت المؤتمرات الانتخابية وسبقت الانتخابات.

وعلى سبيل المثال فإن لجنة الرئيس لا تضم أكثر من ٤٢٠ ناخبا، وهو ما يمهد تلقائيا لنوع جاد من التنظيم.

لكن الظاهرة اللافتة للنظر بالفعل كانت هي هذا الإقبال الشبابي الحماسي على المقار الانتخابية، وهو امتداد طبيعي لإقبال سابق في مرحلة سابقة هي مرحلة التسجيل في جداول الانتخابات، وقد ظهر هذا الإقبال بصورة إيجابية عالية حتى بين الإناث، فقد بلغ عدد الإناث ٤ ملايين في مقابل ٣,٥ مليون من الذكور، وهي نسبة عالية في بلد محافظ ولا يزال محافظًا. وإن دلت على شيء فإنما تدل على أن المواطن العربي لن يظل عازفًا عن المشاركة في الحياة السياسية.

اللجان الفرعية، أو ما يسمي هنا لجان الصناديق يبلغ عددها ٢٧ ألف لجنة ما بين الذكور ١٥,٣٠٠، والإناث ١١,٧٠٠، والظاهرة التي لفتت نظر مندوبي الصحافة المصرية وغيرهم من مندوبي الدول (التي تسمح بالاختلاط) هي الفصل التام بين لجان الذكور ولجان الإناث.

وفي مقابل هذا الحضور النسائي كله كان هناك إحباط تجاه قلة عدد المرشحات إذا ما قورن بالرجال، فقد بلغ عدد المرشحين للمجالس المحلية على مستوى المحافظات ٢٤٠٦، منهم ٣٢ فقط من الإناث، أما المرشحون للمجالس المحلية على مستويات المديريات فبلغ عددهم ٢٢١٠٠ منهم ١٣٢ فقط من الإناث.

(٤)

وفي سابقة هي الأولي من نوعها بلغ عدد منظمات المجتمع المدني المشاركة في التوعية والدعاية عددًا كبيرًا نسبيًا، إذا ما تحدثنا عن مجتمع حديث العهد بفكرة المراقبة على الانتخابات، ففي خلال القيد والتسجيل وصل العدد إلى ١٧ منظمة، وفي مرحلة مراقبة الدعاية الانتخابية وصل العدد إلى ٢٨ منظمة.

أما القانون الحاكم للانتخابات الحالية فهو القانون ١٣ لعام ٢٠٠١، وهو ينص على إنشاء هيئة دائمة للانتخاب من خلال أمانة عامة للجنة العليا يرأسها أمين عام بدرجة نائب وزير وهو مقرر اللجنة، والمقرر الحالي شايف الحسيني يشغل منصبه منذ ٢٠٠٣.

اليمنيون فخورون بأن ضمانات نزاهة الانتخابات تشمل أكثر من ١٥ إجراء، بدءا من الحبر الخاص، إلى الورق الخاص، إلى حق المندوبين، إلى مراقبة الفرز، إلى

حق الطعن أمام المحاكم، وحق المواطنين الناخبين في الطعن أمام مجلس النواب، بالإضافة إلى نشر جداول الانتخابات والناخبين أمام الجميع، وإعطاء حق الطعن أمام المحاكم في أي مخالفة للقانون في جداول الناخبين.

□

كان صباح الأربعاء صباحًا هادئًا بلور الهدوء الذي سعى اليمنيون إليه من خلال صراع فكري يحميهم من احتمال الحروب والنزاعات التي انتصروا عليها منذ ١٩٧٨.

الفصل الخامس

الجزائر ٢٠٠٧

(١)

تحيط مدينة الجزائر بالبحر المتوسط إحاطة جميلة، تجعله يبدو وكأنه جزء منها، أو كأن البحر حبيبها بين يديها في حالة عناق وهي المسيطرة، والبحر هادئ فيما يبدو لكن هدوءه لم يتحقق إلا بمحاولات شتى لتطويعه، التطويع الطبيعي جاء من خلال شكل الخليج، والتطويع الإنساني تحقق أو يراد له أن يتحقق من خلال حواجز الأمواج.

وقد طوع بناة البيوت الجزائرية أنفسهم وأقلموها مع المستويات المختلفة من تضاريس الأرض، والهضاب، والجبل، على النحو الشائع في البلدان الأوروبية التي تقع ما بين الجبل والبحر، وعلى سبيل المثال فإن مجموعات مباني العاصمة تبدو لي من شرفتي العالية في فندق الأوراسي وكأنها مجموعة من رواد المسرح جلسوا على مصاطب متوالية فتظهر رءوسهم جميعًا لكن أقدامهم لا تظهر.

تتعدد الأنماط المعمارية في العاصمة الجزائرية، ومن حسن الحظ أن البانوراما تتضح أمام عيني من الأوراسي، فإلى جوار البيوت القصيرة ذات القرميد التي تبدو من تراث المرحلة الفرنسية فإنك تجد عمارات عالية ذات أسطح نظيفة، وتجد أيضًا مجموعات مبان حكومية معتني بها وبأسطحها.

ولم أجد فيما امتد إليه بصري ذلك النوع المستفز من العشوائيات المصرية التي نستسهل إقامتها فوق أسطح العمارات والمباني الحكومية.

(٢)

ومع هذا فإن الجزائر لا تزال بحاجة إلى أحياء كاملة تبني بالأسلوب الحديث الذي يحترم الخصوصية، ولا يفرط في النمطية على نحو ما هو بارز بقسوة شديدة في مجموعة من العمائر البارزة التي ورثتها الجزائر من حقبة الشمولية.

وأذكر الآن قافزًا على الترتيب الزمني، أنني في طريق عودتي من المطار حين لم تأت طائرتي (المتوهمة) في يوم قبل يومها، وجدت من هذه العمارات النمطية ثلاثًا متوازية تمتد كل واحدة منها مساحة شاسعة تكفي لأن تضم في الدور الواحد مائة شقة على الأقل، طبعًا مع تعدد المداخل والسلالم، لكن المنظر العام لا يوحي بما يقصده المعماريون من مثل هذا التصميم المعني بعظمة الكتلة الكبيرة، وإنما هو يوحي بالقهر في أدق صوره.

(٣)

في الجزائر العاصمة نهضة عمرانية وإنشائية بارزة المعالم لكل زائر، حتى لو كان عابرًا بسرعة، فالأوناش والروافع التي تساعد في أعمال البناء الضخمة منتشرة في كثير من الأنحاء، وأعمال التشييد واضحة للعيان، والاهتمام بأن يتكامل هذا التشييد مع الحياة اليومية ولا يقطعها ولا يقهرها أمر لا بد أن نثني على عناية الحكومة وإدارتها المدنية والبلدية له.

على أن الأهم من هذا التشييد المتواتر للمباني والعمارات السكنية هو أن الجزائر نجحت في إنجاز عدد كبير من الطرق، وأن هذه الطرق قريبة جدًّا في مستواها من الطرق الأوروبية، وهي طرق حرة يخرج العابر فيها بسيارته من اليمين دون أن يوقف الطريق، و دون أن يعيد الدورة، فإذا خرج من اليمين وجد نفسه يعبر الطريق الرئيسي من تحته أو من فوقه في لمح البصر.

والكباري والجسور التي تعبر إلى الميناء وإلي الكورنيش وإلي المطار كثيرة ومتعددة، وقد التزم المنفذون في بنيانها بالمعايير الهندسية المثالية والأكواد الهندسية المدروسة التي تثبت نفسها أعظم إثبات في انتفاء الشكوى (بصورها المتعددة) من الطريق، وأنا أقول «انتفاء» عن عمد وعن تقدير للنجاح، ولا أقول «ندرة» ولا «قلة».

(٤)

وهذه الطرق الدائرية في الجزائر العاصمة وحولها تثبت بما لا يدع مجالًا للشك بُعد نظر المخططين والمهندسين وإدارات الحكومة، وهو أمر يدل على شعب واع، مهما قيل عن محاولات قهره باسم العسكرية الصماء أو الوطنية المدعاة.

وهذا الإنجاز الجديد كله يتم بنجاح ومن دون أن يعتدي على ذاتية الأحياء القديمة، ولا على وجودها، وإنما هو يعبر بالأحياء القديمة أو إلى جوارها أو من حولها في احترام شديد لها، وهو ذلك الاحترام الذي نفتقده في القاهرة.

ومع كل هذا الإنجاز لا يزال الازدحام ملحوظًا في كثير من المواضع، ولا يزال السير يتوقف هنا وهناك كاشفًا عن عجز بعض الطرق عن استيعاب الحركة، وهو ما يدل على أن هذا الإنجاز الذي نشهده الآن وهو يتكامل قد تعطل سنوات كان ينبغي أن يمضي فيها إلى حيث كان يجب أن يمضي وأن يتكثف.

والشاهد أن الجزائر تقود خطوات مدروسة نحو تحديث بنيتها الأساسية، بما يمهد لها دخولًا رحبًا أكيدًا إلى عالم الحياة وعالم المدنية وعالم الحضارة وعالم السياحة بخطوات واثقة، وبقدرات متميزة.

(٥)

أديت صلاة الجمعة في مسجد الفضيل الورتلاني، وكنت قد مررت به عند قدومي من المطار أمس، فدعوت الله أن يوفقني للصلاة فيه في الغد، دون أن أرى إن كان قريبًا من الفندق أو بعيدًا عنه، وقد استجاب الله دعائي، والمسجد يقع على ربوة، والبحر إلى يمينه، والطريق إلى يساره.

والفضيل الورتلاني زعيم جزائري وسياسي عامل، صاحب فضل ونشاط ورؤية، كان من تلاميذ العالم المصلح العظيم عبد الحميد بن باديس، وقد كان على علاقة بمصر، وقد هاجر إليها وأسس بها كيانًا جزائريًا مهمًا أسهم في تحرير الجزائر، وهكذا فإن رؤية اسمه في عصر الأمس حين قدومي أثار شجون الحنين إلى مصر التي كنت قد تركتها في الصباح فحسب.

(٦)

الفضيل الورتلاني هو في رأيي ثالث أبرز أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قادت الحركة الإسلامية في الجزائر منذ تأسيسها سنة ١٩٣١، وكان من أقرب الشخصيات لمؤسسيها العالمين العظيمين الامام عبد الحميد بن باديس والإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمهما الله.

وقد امتد نشاطه الفاعل والمؤثر لخمس دول، وهو مالم يتح لغيره، فقد أثر بفكره وحركته ونشاطه المبشر وقيادته وتوجيهه في الجزائر وفرنسا ومصر واليمن ولبنان، ما لم يتح بالقدر ذاته لغيره من قادة العمل الميداني.

وإذا كان العالم يطنطن بجهاد جيفارا الذي تعدى الحدود فإن الورتلاني يسبقه أثرا وتأثيرا وفضلا. فقد ساهم مساهمة فعالة في التمكين لمباديء العلماء جمعية في الجزائر ثم في فرنسا وفي صفوف العمال الجزائريين هناك. ثم كان مسئولا في القاهرة عن مأسسة العمل التحرري في شمال إفريقيا كله، وفي صياغة التآخي بين فكر الإخوان المسلمين وجمعية العلماء المسلمين الجزائرية ، ثم تولى توجيه الحركة الإسلامية والوطنية فى اليمن.

ولد إبراهيم بن مصطفى الجزائري المعروف بالفضيل الورتلاني في ٢ يونيو ١٩٠٠ في بلدة بني ورثيلان بولاية سطيف شرقي الجزائر، وإليها انتسب، وجاءت شهرته بالورتلاني، ونشأ في أسرة من أهل العلم، و يذكر أنه حفيد الشيخ الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المشهورة.

درس الفضيل الورتلاني علوم اللغة العربية على يد علماء بلدته، ثم انتقل إلى مدينة قسطنطينة سنة ١٩٢٨ حيث استكمل دراسته على يد العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فتلقى عنه التفسير والحديث والتاريخ الإسلامي والأدب العربي، وتأثر بالمصلح الكبير وبطريقته في الإصلاح، وأصبح منذ سنة ١٩٣٢ مساعدًا له في التدريس، و متجوّلًا لصالح مجلة الشهاب ومجلة البصائر، ومرافقًا لابن باديس في بعض رحلاته.

(٧)

ولما كان الشيخ عبد الحميد بن باديس منتبها إلى الضرورة القصوى للرعاية الروحية

للمغتربين الجزائريين في فرنسا، والعناية بالحفاظ على إسلام هؤلاء من الضياع، وتوجيه تربية النشء الجديد قبل أن تلتهمه الحياة الفرنسية، فقد اختار تلميذه النابه الفضيل الورتلاني للقيام بهذه المهمة الشاقة التي تتطلب إيمانًا بالقضية وإخلاصًا لها، ورغبة في الإصلاح والتغيير.

وقد بدأ الفضيل الورتلاني مهمته الجليلة هذه في ١٩٣٦ مبعوثًا عن الجمعية، وأقام في باريس، وبدأ نشاطه المكثف بهمة عالية، واتصل بالعمال والطلبة الجزائريين بفرنسا، و تولى تأسيس مراكز وفصول لتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، واستطاع خلال عامين أن يفتتح كثيرًا من المجتمعات الثقافية في باريس وضواحيها وبعض المدن الفرنسية الأخرى.

ومكنته فرصة وجوده في باريس من الاتصال بالدارسين العرب في الجامعات الفرنسية، وتوثقت بينهم المودة والصلة، و كان من هؤلاء العلامة الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ عبد الرحمن تاج، والعلامة السوري محمد المبارك، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري.

وقد أقلق هذا النشاط السلطات الفرنسية فضيقت على الفضيل الورتلاني حركته، وجاءته رسائل تهدده صراحة بالقتل، بعدما قررت منظمة «اليد الحمراء» الإرهابية اغتياله، فما كان منه إلا أن غادر فرنسا إلى إيطاليا بمساعدة الأمير شكيب أرسلان الذي وفّر له جواز سفر فانتقل إلى إيطاليا ومنها إلى القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٠، حيث آثر الانتساب إلى الأزهر وحصل على شهادته العالمية.

(٨)

وفي جو القاهرة الحرة وجد الفضيل الورتلاني المناخ المناسب للنشاط الإسلامي والتحرري المثمر، واستقر الفضيل الورتلاني في مصر حيث قضى فيها ألمع وأخصب سنوات حياته، وسرعان ما أصبح من أقرب المقربين للإمام الشهيد حسن البنا، الذي بلغ تقديره له أنه كان ينيبه في إلقاء درس الثلاثاء بالمركز العام لجماعة الإخوان؛ نظرًا لملكاته الخطابية وقدرته على الإقناع، بل كلفه بالإشراف على تأسيس بعض شعب الجماعة في مصر.

ونحن نعرف أن الإمام الشهيد حسن البنا كان شديد الإعجاب بالشيخ عبد الحميد بن باديس وجهاده الإسلامي، حتى أنه لما أسس مجلة فكرية أسماها «الشهاب» تيمنًا بمجلة الشهاب الجزائرية، وقد كان للورتلاني الفضل في توكيد هذه الصلة الروحية بين الحركتين الإسلاميتين الإخوان المسلمين بمصر وجمعية العلماء الجزائرية بالجزائر.

وفي القاهرة الليبرالية الحافلة بالحياة والفكر والحرية أسس الفضيل الورتلاني اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر سنة ١٩٤٢، وجمعية الجالية الجزائرية سنة ١٩٤٢، وجبهة الدفاع عن شمال إفريقيا ١٩٤٤، و كان هو أمينها العام وكانت تضم في عضويتها الشيخ محمد الخضر حسين، وحفيد الأمير عبد القادر الجزائري، والأمير عبد الكريم الخطابي المغربي. ثم أسس مكتبا لجمعية العلماء المسلمين في القاهرة (١٩٤٨) واستقبل فيه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة ١٩٥٢.

هذه الجهود المتكاملة والمتتابعة هي ما أسميته بالمأسسة؛ أي تحويل الأفكار والنوايا والنشاط إلى عمل مؤسسي.

(٩)

ثم جاءت النقلة التاريخية الفاصلة حين امتد نشاط الفضيل الورتلاني بتكليف من الإمام حسن البنا إلى مساندة الأحرار في اليمن، التي كانت تموج بحركة طموحة في الإصلاح والتغيير، وكان الإمام حسن البنا على علم بما يجري في اليمن، ومِن تطلُّع إلى الخروج بالبلاد من عزلتها وفقرها وجهلها.

وقد وصل الفضيل الورتلاني اليمن ١٩٤٧ وعمل على توحيد صفوف المعارضة والتأليف الموضوعي بينها ، وقاد الثورة بخطبه الحماسية.

وفي جولاته اليمنية التقى العلماء والوجهاء والشباب وألقى خطبه في المساجد والأماكن العامة، وتمكن من إقناع اليمنيين بوحدة الصف وضرورة التغيير والخروج من الجهل والتخلف.

وبعد شهرين رجع إلى مصر حيث كانت تقيم النخبة والمعارضة اليمنية من أجل

تحضير دستور جديد أو ما سمي بالميثاق المقدس، وعاد مرة ثانية لعرض الميثاق على العلماء والسياسيين لسبر آرائهم والاستماع لاقتراحاتهم.

وقد تم الوصول إلى الصيغة النهائية للميثاق المقدس في نوفمبر ١٩٤٧، وكان الاتفاق بين كل هذه الأطراف على تنصيب عبد الله الوزير حاكما دستوريا على البلاد خلفًا للإمام يحيى حميد الدين.

وفي فبراير ١٩٤٨ حدث ما هو معروف من نجاح المعارضة اليمنية في الوصول إلى الحكم بعد إزاحة الإمام يحيى، لكن الإمام أحمد يحيى حميد الدين عارض هذه الحكومة الدستورية في صنعاء واتهمها باغتيال والده وإهانة أخواته، وجمع القبائل الموالية له وقاد ثورة مضادة وحارب النظام الجديد وأسقط النظام الدستوري في ١٣ مارس ١٩٤٨، وتولى الإمام أحمد عرش اليمن.

واتهم الورتلاني بالطبع بالمشاركة في هذه الحركة الإصلاحية، فقبض عليه هناك ثم أفرج عنه فغادر الورتلاني اليمن، وكان للإمام الشهيد حسن البنا دور في الإفراج عنه وعن رفيقه أمين إسماعيل.

وكان قد حُكم عليه بالإعدام وأصبح مطلوبًا، حيث قضى أربع سنوات متسترًا قضاها في التجوال في الدول الأوروبية والتقى بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء الجزائريين ونائبه الشيخ محمد العربي التبسي في سويسرا.

وقد رفضت الدول العربية استقبال الفضيل الورتلاني، إلى أن وافق لبنان بفضل رياض الصلح رئيس وزراء لبنان على استقراره في بيروت، شرط أن يكون ذلك سرًا.

(١٠)

وبعد قيام ثورة ١٩٥٢ عاد الورتلاني إلى مصر بعد غياب عدة سنوات، واستقبله العلماء والسياسيون استقبالًا حسنًا؛ نظرًا لماضيه المشرِّف في الجهاد، وعاد إلى نشاطه و جهاده، وقد لعب دورًا من أهم الأدوار في بزوغ الثورة الجزائرية التي اشتعلت على أرض بلاده.

وقد انطلقت الثورة الجزائرية في ١ نوفمبر ١٩٥٤.

غداة اندلاع الثورة الجزائرية نشر الورتلاني مقالًا في ٣ نوفمبر ١٩٥٤ بعنوان: «إلى الثائرين من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت»، وفي ١٥ نوفمبر ١٩٥٤ أصدر مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بيانًا بعنوان: «نعيذكم بالله أن تتراجعوا».

وفي ١٧ فبراير ١٩٥٥ شارك الورتلاني في تأسيس «جبهة تحرير الجزائر»، التي كانت تضم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وممثلي جبهة التحرير الوطني: أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، وبعض ممثلي الأحزاب الجزائرية: الشاذلي مكي، وحسين لحول، وعبد الرحمن كيوان، وأحمد بيوض.

ولم تَطُل مدة إقامة الفضيل الورتلاني بالقاهرة بعد انقلاب عبد الناصر على محمد نجيب في ١٩٥٤، وكان هذا أمرًا طبيعيًا بعد استئثار عبد الناصر بالسلطة واعتقالاته للإخوان المسلمين وإعدام ستة من قاداتهم.

وبالطبع فقد هاجم الورتلاني عبد الناصر على محاربته للإخوان، وكرر هذا في موسم الحج فكان جزاؤه السجن الحربي مع زميله الشاذلي المكي بعد عودتهما من الحج إلى القاهرة.

وكان من حسن حظ الفضيل الورتلاني أنه تمكن من مغادرة القاهرة سنة ١٩٥٥م متوجهًا ثانية إلى بيروت، بعد أن تأكد من تآمر المخابرات المصرية عليه وعلى أستاذه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

كان الورتلاني قاسيا على نفسه من أجل جهاده و دعوته، وقد أدى ذلك إلى اختلال في صحته، وتعرُّضه لأمراض خطيرة، حتى لقي ربه في إحدى مستشفيات مدينة أنقرة في ١٢ من مارس ١٩٨٧م، و بعد سنوات من الجحود، نقلت رفاته من تركيا ليعاد دفنها، ودفن في مسقط رأسه بالجزائر.

جمعت بعض مقالاته في كتاب بعنوان «الجزائر الثائرة».

وكتب عنه الشيخان الباقوري والقرضاوي، والدكتور مصطفى الشكعة في «مغامرات مصري في مجاهل اليمن»، وحميد شمرة في«مصرع الابتسامة»، وأحمد الشامي في «رياح التغيير في اليمن».

(١١)

قال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

«الأستاذ الفضيل الورتلاني ممن أنبتتهم هذه النهضة الجزائرية المباركة نباتا حسنا، فعمل بإخلاص في ميادين الجهاد في الجزائر ثم نَبَتْ به الدبار فنزل مصر، وجال في ربوع الشرق كلها جولات رفعت صوت الجزائر عاليا في تلك الربوع، وكونت منه زعيما جزائريا بحق وشخصية بارزة لها مقامها المعلوم بين رجالات الشرق كلهم، ولقد حز في نفوس شرذمة من المغرضين في الجزائر ما أحرزه الورتلاني من النجاح في الأوساط السياسية بالشرق، فراحوا يتقولون عليه الأقاويل ويتهمونه في إخلاصه وجهاده للنيل منه ومن جمعية العلماء المسلمين التي يحالون ثلبها في مفخرة من مفاخرها ، والتنقيص من مقامها في شخص أحد أبنائها البررة...».

وقال عنه أحمد الشامي أحد المشاركين في ثورة اليمن ١٩٤٨:

«العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتلاني هو الذي غير مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وأنه حين وضع قدمه على أرض اليمن كأنما وضعها على زر دولاب تاريخها فدار بها دورة جديدة في اتجاهات جديدة، لأن ثورة الدستور ١٩٤٨ هي من صنع الورتلاني».

و قال عنه محمود عبد الحليم في كتابه «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ»:

«كان الفضيل الورتلاني شابًا جزائريًا من زعماء المجاهدين الذين طاردهم الاستعمار الفرنسي فهرب إلى مصر واتصل بالإخوان المسلمين، وكان كثير التردد على المركز العام للإخوان المسلمين، حتى ليكاد يتردد عليه كل يوم باعتبار هذه الدار مركز الحركات التحريرية ضد الاستعمار في كل بلد إسلامي؛ كان الفضيل الورتلاني لماح الذكاء سريع الحركة كثير المعارف، لا يقتصر تحركه على ما يخص موطنه الأصلي (الجزائر)، بل كان يرى العالم الإسلامي

وحدة لا تتجزأ، وأنه مطالب بتحرير كل جزء منه، واعتقد أن الفضيل الورتلاني كان أول من سافر إلى اليمن التي أطاحت بالإمام يحيى».

«إن أستاذنا الفضيل الورتلاني علم من أعلام الإسلام المعاصرين، فقد أتاه الله علمًا واسعًا وذكاء حادًا وبديهة حاضرة وثروة من التجارب وافرة، وأسلوبا في الحوار نادرًا، وجرأة في الحق وقدرة على التصدي للباطل، وسلاسة في الحديث وفصاحة في الخطابة، وقوة في الإيمان ويقظة في الضمير».

«ولست في هذا مبالغًا ولكنه بعض ما في الرجل؛ لأن الفضيل الورتلاني نموذج فريد للرجل المسلم القوي، الذي تصغر في عينه عظائم الأمور وتهون أمامه كل الصعاب، فلا يتهيب من اقتحام الميادين مهما عظمت التضحيات ولا يتردد لحظة في مواجهة الباطل المنتفش مهما كانت قوته وجبروته».

(١٢)

أما صلاة الجمعة وخطبتاها والخطبة التي قبلها فقد أخذت وقتًا طويلًا جدًّا، ولا يعجبن القارئ من هذه الجملة التي تنبئ عن ثلاث خطب، فإني عندما دخلت المسجد وصليت ركعتين في تحيته وجدت خطيب مسجد الورتلاني جالسًا على كرسي بينما المنبر خال منه، وكانت هذه أول مرة في حياتي أرى خطيب الجمعة على هذا النحو.

أخذ الخطيب يتحدث وهو جالس في موضوع الساعة، وهو قتل الأبرياء في التفجيرات الضخمة التي وقعت قبل يومين.

ومن المفهوم بالطبع أن يتحدث الخطيب في مثل هذا الموضوع بسبب الزمان، لكن هناك سببًا أقوى يجعل حديثه يفيض بما لا نهاية له من الشجون، وهو أن الحادث وقع على بعد خطوات من هذا المسجد نفسه، وهكذا اجتمعت لخطبة الجمعة التي قدر لي أن أشهدها في الجزائر شجون الزمان والمكان.

والواقع أن الخطيب أوفى هذه الشجون بقدر ما استطاع في خطبته التي ظننتها خطبة الجمعة الموحدة، وقد استمرت منذ ما قبل الساعة الواحدة وحتي الثانية إلا الثلث،

وضمت في نهايتها بعض الأدعية، وهكذا ظننت أن الرجل لجأ إلى هذا التطويل ودمج الخطبتين في خطبة واحدة، لكن ظني كله كان مخطئًا تمامًا.

فما انتهى الشيخ من الخطبة التي حسبتها بمثابة الخطبتين معًا حتى وجدت المؤذن وقد ارتفع صوته بما ظننته الإقامة، لكني وجدت البطء ملحوظًا في هذه الإقامة فشككت في الأمر، حتى تجاوز الموضع الذي يقول فيه مقيم الصلاة: «قد قامت الصلاة».

وعندئذ أدركت أن الأمر مختلف عما أعهده وأتوقعه، وإذا بالخطيب الذي كان جالسًا على كرسيه يقوم فيصعد المنبر، وإذا به يفتح أوراقًا كتب فيها خطبة الجمعة، وإذا به يستطرد مما هو مكتوب ليكرر بعض المعاني التي قالها وهو جالس، وإذا به يصل إلى موضع الدعاء بين الخطبتين فيجلس ثم يقوم ليخطب الخطبة الثانية، وهكذا قدر لي لأول مرة في حياتي أن أشهد جمعة بثلاث خطب!!

هل لي أن أقول إنه على الرغم من فداحة الحادث الإرهابي، وعلى الرغم من بلاغة الخطيب، كان المصلون في غاية الضجر، أم أنني أتحدث عن نفسي وأنسب شعوري إلى المصلين!

الواقع أن المصلين الذين كانوا بجواري وإلي أمامي كانوا لا يكفون عن التململ في أماكنهم، وعلى أرجلهم، وعلى جنوبهم، من هذا الطول الذي لم تعد الأعمار تحتمله، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «... فإن منهم المريض».

(١٣)

كان مما ملأ قلبي بالسعادة في الأيام التي قضيتها في الجزائر سماعي لأصوات الأذان بوضوح وجمال وتنوع وتعاقب؛ ذلك أن أصوات أذان الصلوات الخمس ترتفع في الآفاق المحيطة بفندق الأوراسي، يبدأ مسجد قبل آخر، وينتهي ثالث قبل رابع.

وأصوات أداء المؤذنين في الجزائر تتراوح بين تطويل مؤذني مصر، وتقصير مؤذني السعودية، وهي أصوات جميلة معبرة، فيها طبيعة جزائرية، وفيها رنة الاختلاس (كما يسميه اللغويون)، والإسراع بالحروف وتقصير حروف المد. وفيها أيضًا النبرة الجزائرية الخاصة بالحروف العربية في نهاية كل كلمة.

ومع هذا فإن كثافة المآذن في المناطق التي مررت فيها قليلة جدًّا إذا ما قورنت بالقاهرة أو بالإسكندرية أو بغيرهما من العواصم العربية.

والأمر الذي سبب لي بعض الألم أن أثر التغريب «الخلقي» أو «الوظيفي» لا يزال يفرض نفسه على صلاة الجمعة، فبعض موظفي الفندق يقولون إن ضمائرهم لا تسمح لهم بأن يودوا صلاة الجمعة لأنهم في عمل، وعند بعضهم أن سؤال نزيل من نزلاء الفندق عن مسجد قريب يؤدي فيه صلاة الجمعة شيء غريب أو شبه شاذ.

وصحيح أنه لا جمعة لمسافر، لكن فهم الدين والسياحة (في مثل حالتنا) يدلنا على ما هو أعمق وهو أن المساجد مقصد من مقاصد السياحة، والصلاة فيها ثقافة ينبغي للسائح أن ينالها وأن يحرص عليها.

(١٤)

والواقع أن مسجد الفضيل الورتلاني حافل بكثير من وجوه الشبه بمساجد مصر في العصر الذي نعيشه الآن، فهو مزدحم، وبابه أضيق من أن يسع خروج المصلين في يسر، وعلى بابه متسولون كثيرون من أعمار مختلفة، وبين هؤلاء المتسولين فتاة صغيرة لا أحسب أن أحدًا يرضى لها أن تحترف التسول في هذه السن المبكرة، لكن انشغال الأمن بالإرهاب وما شابهه حال بينه وبين ممارسة أدوار قديمة من قبيل مكافحة التسول ومراقبة الأحداث، الذين يبدأون طرقا تنتهي بهم إلى الجنوح إلى الجرائم، أو ما شابه الجرائم.

وعلى باب المسجد نصب التلفزيون الجزائري كاميراته وميكروفوناته ليحصل من المصلين على تعليقاتهم الشاجبة للإرهاب.

وفي النشرة الإخبارية التي أذاعها التلفزيون في المساء وجدت نشاطًا إعلاميًا ظاهرا في متابعة وتسجيل خطب الجمعة في كافة أنحاء الجزائر، وإذا بصور المصلين والخطباء في عدد كبير من المدن والمساجد تتوالى في النشرة، وهو دليل قاطع على كفاءة إعلامية حقيقية تظهر عند الحاجة الملحة إليها.

(١٥)

ربما حان الوقت لأحدثك عن هذا الفندق الكبير، فقد أتيح لي أن أقيم في فندق «الأوراسي»، وهو كما يقولون أول فندق ضخم أقيم بعد الاستقلال، وهو أيضًا لا يزال أول فندق من حيث قيمته المعنوية.

والفندق مبني على مساحة شاسعة تحيط بها الفضاءات والمداخل والمخارج من كل جانب، بيد أن تصميمه أميل ما يكون إلى النمط السوفيتي على نحو ما نقول في تعبيراتنا الواصفة، فالأدوار المتكررة اختزلت أو تبلورت أو تشكلت في طرقة طويلة جدًّا وفي وسطها بالضبط ممر إلى المصاعد.

وإلي يمين الطرقة حجرات تطل على البحر، وإلي يسارها حجرات تطل على الجبل، ولهذه سعر، ولتلك سعر آخر.

وفي الفندق أجنحة من ثلاثة مستويات يطلق عليها: جناح أصغر، وجناح أكبر، وجناح رئاسي.

وفي الفندق مطاعم متعددة، منها مطعم للوجبات السريعة، ومطعم للأسماك، ومطعم كبير يتحمل جميع النزلاء في الإفطار، ومطعم رابع اسمه «مطعم الخليج» يتحملهم في الغداء والعشاء.. والإفطار على الرغم من سعة المطعم وكبر الفندق فقير في أصنافه.

والفندق رغم إمكاناته الموقعية والحجمية والإنشائية فقير في إدارته، ويبدو بوضوح أنها إدارة شبه حكومية، أو على حد تعبيرنا الشائع في مصر: إدارة قطاع عام.

(١٦)

ومن الإنصاف أن نقول إن القائمين على الإدارة يبذلون أقصى ما في وسعهم، لكن هذا «الأقصى ما في الوسع» يبدو متخلفا عن الأدنى المتاح في سلاسل الفنادق التي تعمل تبعًا لمنظومة متكاملة من الجودة وكفاءة الخدمة ومراقبتها ومعاييرها.. والأيزو وما يتضمنه من حدود دنيا وقصوى، وتوقيت ومستويات أداء.

وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن مما يؤسف له أن:

- تعاني خلاطات المياه المنصوبة على الحوض من تسريب الماء.
- أو أن تكون آلية تصريف الحوض بحاجة إلى إصلاح.
- أو أن تكون أصوات موسيقى المطعم شيئًا مفروضًا بقسوة، لا يمكن التحكم فيها إلا عن طريق موظف الاستقبال أو مديره!!
- أو الحشرات الصغيرة التي أصبحت متوطنة في أرضية الحجرات، نتيجة تقادم عمر الموكيت.

وفي مطعم السمك أكثر من عشرة من المتردوتيلات، وفي الأيام التي قضيتها كنت تقريبًا بمثابة الزبون الوحيد في الغداء، وليتهم يعنون بهذا الزبون الوحيد كما ينبغي أن يكون الاعتناء، وهكذا تظهر الإدارة القديمة في أبهى صورها.

ولا أريد أن أمضي أكثر من هذا، فأعدد بعض الطرائف في طابع أو فلسفة الفكر الإداري الحاكم في مثل هذا الفندق، ولكني أصل معك إلى لحظة الخروج من الفندق وطرافتها، فلا بد لك بعد أن تتم إجراءات الخروج من أن تحصل على ورقة تصريح تعطيها للباب وأنت خارج بحقائبك.

(١٧)

ربما كان من حق القارئ بعد هذا أن يسأل: إذا كان هذا هو أسلوب الإدارة فما هو مستوى القوى العاملة أو الموارد البشرية نفسها؟

وإذا كنت أحس بالتجني في أحكامي على العاملين في هذا القطاع العام الفندقي الجزائري، فإني أجد نفسي مضطرًا لأن أفضي ببعض ما يكشف عن جوهر المشكلة.

وسأجيب على هذا السؤال بإضاءات سريعة:

لا يخلو الأمر في ممارسة هؤلاء الموظفين لمهامهم الفندقية والسياحية من كثير من التصرفات التي نسميها بالتصرفات الريفية، فالقائمات على خدمة الغرف لا يجدن حرجًا في أن يقفن في الطرقات ويتبادلن حديثًا طويلًا بصوت عال منفر، وبعضهن

يتبادلن الحديث مع بعض، وبعضهن يتبادلنه مع بعض الرجال، والقائمات على خدمة المطعم كذلك يقفن في مدخل المطعم ليتبادلن حديثًا طويلًا يبدو من مفرداته أنه نميمة لاحقة لا هم لها إلا النميمة وحسب.

وظني أن هذا لم يحدث إلا نتيجة البطالة المقنعة التي تفرض على مثل هذا الفندق توظيف أعداد لا حاجة حقيقية لها، فتكون النتيجة على هذا النحو.

(١٨)

عندما صعدت لاستلام غرفتي إذا بخادمات الدور كله مجتمعات بالقرب منها، وإذا بهن يضحكن من أنها غير صالحة للاستعمال، ويخاطبن المرافق الجزائري الذي صحبني إلى الفندق وإلي الغرفة ويطلبن منه أن يشرح لي هذا المعني، مع أن المعني واضح.

لما وجدتهن على هذا النحو من السعادة بالمفارقة التي لا ذنب ليّ فيها، آثرت أن أزيد المفارقة عمقًا فأدرت المفتاح الذي معي في الباب، وإذا بهن كما توقعت ينفجرن بالضحك، وقد ظنن أو قد تأكدن أني قادم من كوكب آخر، وإذا برئيستهن تقول: إن عليّ أن أذهب مرة أخرى إلى الاستقبال كي أحضر مفتاح غرفة أخرى.

وببساطة شديدة أجبتهن أو سألتهن: ولماذا لا يتصلن من أي تليفون في أي حجرة ويطلبن هذا من الاستقبال؟ فأجبنني بأن هذا غير ممكن بهذه السهولة.

والواقع أني كنت أعرف أنهن يملكن قدرًا من الصواب فيما قلنه، ذلك أني كنت قد استلمت مفتاح غرفتي على مرتين، في المرة الأولي تسلمت كارتا فيه رقم الغرفة، وبياناتي عليه، وعليه مؤشرات واضحة بأن لي الحق في الإقامة وفي المطاعم، وقيل لي تذهب بهذا الكارت إلى الركن المجاور لتتسلم به مفتاح غرفتك.

وهكذا كان مطلوبًا مني (بعد أن صعدت إلى هذه الغرفة غير الصالحة للإقامة) أن أذهب مرة أخرى لأعيد الكارت وأحضر كارتًا آخر، ثم أن أحضر مفتاحًا آخر بالكارت الآخر.

(١٩)

لهذا فإنني بسبب إجهادي اضطررت إلى أن أتصرف في شيء من الجفاء الظاهر،

وقلت لرئيسة الدور إن عليها أن تسأل عن الغرفة البديلة في الدور نفسه، وأن تفتحها لي بالمفتاح «الماستر» ريثما يرسلون الكارت والمفتاح لي.

ومن حسن حظي أن هذه السيدة بجزائريتها الأصيلة وعروبتها الكريمة استجابت لطلبي الذي ألقيته عليها بلهجة الأمر، وأدخلتني الغرفة ٢٠٧ بدلا من ٢٠٥، وجاءت بعدها بمدة لتعتذر عن أن السبب في عدم صلاحية ٢٠٥ للإشغال هو أن أحد جوانب بابها الزجاجي على الشرفة مكسور تمامًا.

في المساء حين وجدت بعض لفحات البرد المنعش سألت نفسي: ماذا يحدث لو أن الغرفة ذات الشرفة المكسورة أعطيت لسائح جاء متأخرا في غياب الموظفات المسئولات اللاتي يعرفن العيب فيها، وذهب لتوه للنوم ليستيقظ على التهاب رئوي ربما يودي بحياته؟

وحمدت الله على أنني جئت هذا الفندق في الوقت الذي كانت عاملاته لا يزلن في دوامهن.

وبعد يومين فوجئت وأنا أخرج من غرفتي بألواح زجاجية متعددة كتبت عليها أرقام الغرف، ومعنى هذا أن الزجاج المكسور لم يكن في غرفة واحدة، ولا في اثنتين، وأن هذا العيب في طريقه للإصلاح اليوم، بيد أن يومًا آخر مضى، والزجاج الجديد لا يزال في إطاراته وورق حفظه ينتظر التركيب.

(٢٠)

ومع كل هذا فإن الحرص على أعلى مستوى من مستويات الضخامة واضح في بناء هذا الفندق، أو بعبارة أدق في تصميم بنائه، فالحجرات واسعة جدًّا، وبكل حجرة دورتان للمياه منفصلتان على النظام الفرنسي الحديث، الذي يفخر الفرنسيون أنفسهم به، فالبانيو ومعه حوض كامل في حجرة، بينما المرحاض والشطاف ومعهما حوض كامل في حجرة أخرى إلى جوارهما.

وهكذا فإنك تدخل حجرتك لتجد إلى اليمين بابين لغرفتين من غرف المياه، ثم تجد حجرتك الواسعة، ذات الشرفة الواسعة.

والمنظر الذي يطل عليه الفندق من حجراته البحرية جميل جدًّا، بل هو الجمال بعينه، وبخاصة أن أدوار الفندق تمثل منارًا فوق قاعدته، والقاعدة نفسها تمثل منارًا فوق الهضبة، والهضبة تمثل مصطبة فوق الأرض المتصلة بسطح البحر. وهذا بلا أدنى مبالغة هو المنظر الذي يتبدى فيه الفندق حين تنظر إليه من أي طريق محيط به وأنت في طريقك إليه صاعدًا ربوة بعد هضبة... إلخ.

(٢١)

وعلى عكس ما يتوقع المرء من فندق مطل على البحر من علٍ، فإن الهواء في شرفتي شحيح إلى أبعد الحدود، والسبب يكمن فيما أسميه ضعف الشق الجغرافي والمناخي في التصميم المعماري، الذي جعل وجهة الشرفات قبلية، على نحو ما يقول المصريون أصحاب التجربة في وصف بعض شرفات فندق فلسطين في منتجع المنتزه.

ومع هذا فإن منظر هذه البيوت التي ألقت بنفسها تحت أقدام فندق الأوراسي يجعل نزيل فندق الأوراسي يشعر بنوع من انتعاش العظمة لا يحتاج معه إلى الانتعاش بهواء البحر، وربما أن الجو حار، وربما أنه رطب، لكن ما نسميها «نسمة الهواء» على كل الأحوال مفتقدة، وليس هذا هو الجو الذي يمكن أن يصادفه الإنسان في مثل هذا الوقت من العام في فندق يطل على البحر من علٍ على مثل هذا النحو الذي رزقه الأوراسي.

وعلى النقيض من الموقع المتميز والمساحات الشاسعة فإن توظيف هذه الإمكانات كلها أصبح منذ تأسيس الفندق ولا يزال حتى الآن محدودًا، وذلك بالطبع بسبب طريقة في الإدارة نعرفها ونعرف أنها عتيقة التفكير، ضيقة الأفق.

ولو أن هذه المساحة تركت للعقلية البدائية المفرطة في البدائية لتحولت المنطقة لأفق سياحي مرتبط بالزمن الحالي ومرحب بما في العصر الحالي، على نحو ما هو الحال في كثير من المناطق الأوروبية.

(٢٢)

وعلى مدى النظر يستطيع نزيل فندق الأوراسي أن يستمتع برؤية بانورامية لمعالم

العاصمة الجميلة، حيث يرى الرائي عددًا قليلًا من الأبراج المفرطة في الارتفاع، لكن أعلاها جميعًا هو ذلك النصب التذكاري الذي أقيم على أعلى ربوة في العاصمة تخليدًا للشهداء الجزائريين الأبطال العظماء، في حربهم الوطنية الممتدة والمتلازمة مع ثورتهم.

ولا ريب أن من حق شهداء الجزائر أن يكونوا أعلى من هذا بكثير حتى في كل رموز الدنيا، فقد صنع هؤلاء الأفذاذ باستشهادهم دولة كادت تضيع إلى الأبد في ظل قسوة مستعمر كان معروفًا عنه أن سياسته في ذلك الوقت لم تكن ترحم هوية ولا ذاتية ولا لغة.

وإذا أردت أن تدرك حجم معاناة الجزائريين مع أثر الاستعمار الفرنسي، فإنه يكفيك أن تتأمل حوارًا يدور بينك وبين الجزائريين، أو حوارًا آخر يدور بينهم وبين بعضهم، وإن تأملك هذا لكفيل بأن يدلك على مدى التغلغل الاستعماري القاسي الذي فرض نفسه حتى على لغة التعامل اليومية.

(٢٣)

وربما أن خير تصوير لمعاناة الجزائريين مع اللغة الفرنسية التي فرضت على حياتهم، هو أن نقول إن الجزائريين خرجوا من الجهاد الأصغر الذي كان هو معركة المليون شهيد التي انتهت بالاستقلال في ١٩٦٢، إلى الجهاد الأكبر الذي هو معركة الهوية والتعريب التي لا تزال في حاجة إلى جهود كبيرة من أجل الانتصار فيها.

ومع صعوبة الوضع القائم فإني أؤمن أن هذا الانتصار سوف يتحقق حتمًا، لأن الجزائريين أنفسهم يرغبون فيه، ويعملون من أجله، لكن الجهود المبذولة في سبيله لا تزال في حاجة إلى تكثيف ودعم لا ينتهيان.

لكن عصر الفضائيات جاء وأصبح، دون أن يخطط أحد أو يتوقع، بمثابة السلاح الأقوى في معركة التعريب ومعركة الهوية من قبلها، ولولا هذه الفضائيات لتأخر الإحساس بالذات الجزائرية، ولتأخر الاجتهاد في الدفاع عنها.

ولي الفخر أنني كنت أول من نبه إلى هذا، متنبئًا بكل وضوح بأن فضائيات الفصحى

سوف تكون هي الفضائيات السائدة، وسوف تلعب أدوارًا غير مسبوقة في نهضة الفصحى في كل نطاق عربي أو مستعرب.. وقد كان.

(٢٤)

أحب أن أحدثك عن شعوري تجاه قضية علاقة العاصمة بالدولة، فأنت تحس عند متابعة نشرات الأخبار الجزائرية أن العاصمة لا تطغى على الأقاليم الأخري ذلك الطغيان الذي تطغاه القاهرة، وإنما أنت ترى هذه المدن تقف إلى جوار العاصمة ولا تنسحق أمامها تمامًا، وربما حدث هذا وتأكد بسبب خلفيات تاريخية وعرقية، وذلك على الرغم من أن العاصمة تستأثر لنفسها باسم الدولة، كما هو الحال في تونس والكويت ودول قليلة جدًّا في العالم كله.

لكنك لا بد أن تذكر أن هذا الوضع الذي ينتصر للأقاليم الجزائرية ولمدن الأقاليم الجزائرية، يمثل نجاحًا حقيقيًا رغم كل شيء، فأقول لك السبب المظنون في ذلك، فهذه بلاد ارتبطت ولا تزال ترتبط بثقافة فرنسا التي تعتبر باريس بمثابة المدينة الدولة، حتى إن باريس الكبرى يطلق عليها اسم إقليم فرنسا، وبمثابة القاهرة الطاغية على ما حولها، التي تستحوذ لنفسها على اسم مصر.

ولهذا فإنك لا بد أن تقدر هذا الحضور الإعلامي للمدن الأخرى إلى جوار الجزائر العاصمة، ويكفي العاصمة في المقابل أنها تحمل اسم الدولة اسمًا وفعلًا.

فإذا وجدت أن العلم والجامعات والنشاط العلمي يتوزع هو الآخر على هذه المدن إلى جوار العاصمة، فسوف تطمئن أكثر إلى مستقبل هذا الوطن.

(٢٥)

أنتقل معك إلى الشارع الجزائري انتقالا سريعا بحكم قصر الفترة التي قضيتها فيه، والشارع الجزائري أقل حدة من المجتمع الجزائري، ذلك أن الطيبة والفطرة الجزائريتين تسيطران على الشارع بأكثر مما تسيطران على المجتمع، وهذا من حظ الجزائر. كذلك فإن الإسلام في الجزائر متجذر بأكثر من تجذر اللغة العربية، وأظن أن هذا موجود من قبل الاستعمار.

لست أنكر بصمات جماعة العلماء وباديس والبشير الإبراهيمي في صياغة الحياة الجزائرية في اتجاه القيم الرفيعة والأخلاق العليا والسلوكيات المثلى، لكني لا أنكر أيضًا أن الإنسان الجزائري هو التجسيد الحي لهذا كله.

فالإنسان الجزائري إنسان رائع، الصراحة رائده ومنهجه، ووضوح الرؤية سمته، والفكر العميق صمته، وليس بعد هذا عجيب أن يكون صريحًا أو عنيفًا فتلك سمات تصاحب المزايا الكبيرة على وجه العموم.

(٢٦)

في الجزائر تعبيرات عربية جميلة الإيحاء أو الوقع وخصوصا تلك التعبيرات التي لجأ إليها بعض الجزائريين في ترجمة المصطلحات الأجنبية.

فعلى سبيل المثال:

• فإن «الكريم كرامل» هنا اسمه في قوائم الطعام «قشدة كرامل مقلوبة»، ألا ترى هذه الدقة الشديدة في وصف طبق «الكريم كرامل».

• أما ما نسميه نحن في مطاعمنا بالشوربة أو بالحساء، فاسمه بالفرنسية La petite marmite، وهكذا فإن اسمه في الجزائر «القدرة الصغيرة».

• و«الانتركوت» تترجم في الجزائر على أنه ضليعة.

• أما أضلاع لحم الخروف فإنها تقابل Cotes D'agneau.

وربما كان مهمًا أن أسمي لك الأسماك المصرية بأسمائها:

• الدنيس هنا «لو».

• والقاروص «بيرل لو».

• والمرجان «روحي».

• والجمبري «كيورفت».

• وسمك موسى هو «الصول».

(٢٧)

أصبح الجو في الجزائر متقلبًا بشدة في كل مكان نمر به في هذه الأيام التي زرتها فيها، فمن شمس مشرقة.. إلى غيام كثيف، ومن حرارة مرتفعة.. إلى برد زمهرير، ومن جو لا ينذر بمطر.. إلى مطر غزير.

وقد أصبح الناس يتقبلون هذه التقلبات (التي انتشرت في العالم كله وليس في الجزائر وحدها)، ويعدونها جزءًا جديدًا من طابع الحياة الغربية في نظر البعض من الذين يميلون إلى البساطة، أو الحياة التي اضطربت عواملها البيئية في نظر الآخرين الذين يبحثون عن السبب ويؤمنون بوجوده.

(٢٨)

لا يستطيع زائر الجزائر أن يتجاهل ولا أن ينكر حقيقة اجتهاد الجزائريين وسعيهم إلى التجويد والارتقاء، وتوظيف ملكاتهم في هذا الاتجاه، لكن ما ينقص التخطيط القومي للجزائر، يتمثل في الإسراع المطلوب أو الواجب الذي لا بد منه للاقتناع بالمجازفة المحبوبة (وليست المحسوبة) في تأهيل القوى البشرية بالتعليم الجامعي العالي الهادف إلى توسيع قاعدة الاختصاصيين الوطنيين في كل مجال هندسي أو علمي.

وأستطيع أن أقول إني عرفت بعد دراسة أن الجزائر تخطو خطوات واثقة في سبيل نشر التعليم العالي نشرًا ذكيًا ومتوازنًا، لكني أريد لهذا التعليم العالي أن ينطلق انطلاقة أخرى تعنى بالكم بأكثر مما تعنى بالكيف، ولا ينزعجن أحد مما أقول.. فالعناية بالكيف لن تتأتى أبدًا في ظل أنصاف الكم إلى الحدود المتاحة الآن في الجزائر.

أفهم جيدًا مدى حرص الجزائري على الجودة والتفوق، لكني أفهم جيدًا مدى الحاجة الجزائرية إلى الانتشار الواسع للعلم والمتعلمين والمتدربين والمتأهلين والقادرين على صياغة هذا كله بما يتناسب مع بلد عظيم له تاريخه وله إنجازه، ثم هو اليوم أكبر البلدان العربية مساحة وأهمها في معايير التأثير السياسي الحقيقي، بعيدًا عن الأطروحات التقليدية والصياغات القديمة.

(٢٩)

لو طلب مني أن أكون مديرًا لجامعة جزائرية فإني سأشترط أن يضاعف عدد طلابها في السنة الأولى ثلاثة أضعاف، لينتهي الحال بزيادة خريجيها بعد ٤ سنوات إلى عشرة أضعاف، يرتبط ثمانون بالمائة منهم بعلوم المعلومات والحاسبات والمكتبات والرياضة والفيزياء والكيمياء والبترول والمعادن والكيمياء الحيوية والطيران وهندسته والبواخر الملاحة وهندسة التشييد... إلخ.

وإن كان على الجزائر أن تقتدي بتجربة عالمية معاصرة فإني أرشح لها على غير توقع القراء أن تحتذي خطوات اليابان، وليس من شك عندي في أن مجتمع الجزائر هو أقرب المجتمعات العربية إلى اليابان، أخلاقًا والتزامًا وأدبًا.

ولك أن تقارن بين أخلاق هذين الشعبين، لتدرك بوضوح أننا لا نعرف من أخلاق الجزائريين إلا الانطباعات العابرة عن أولئك الذين يهاجرون إلى فرنسا، ويشغبون في ضواحي باريس أو مرسيليا.

وإذا كان على الجزائر أن ترسم لنفسها خطة قصيرة الأجل، فإني أشير عليها بأن تأخذ نموذجًا لها دولة التشيك التي استطاعت أن تخرج من الإطار الفكري السوفيتي الحديدي برشاقة سريعة.

(٣٠)

أما ارتباطات الجزائر العربية فإن لها ولا تزال لها حسابات معقدة، لكن الجزائر التي هي كما قلت أكبر الدول العربية مساحة، والتي أصبحت بالمقاييس الاستراتيجية أقوى الدول العربية فيما بعد ١٩٦٧ وهزيمتها الساحقة، لم تفرض مكانتها بعد، وإن لم تكن قد فرطت فيما أتيح لها من فرص.

• ترتبط الجزائر بسوريا الحبيبة بأكثر من رابط، وقد كانت سوريا هي ملاذ الجزائريين الأحرار ومعهد تعليمهم، كما كانت الوفود العلمية السورية صاحبة الإسهام الأكبر في صياغة المجتمع العلمي الجزائري، ومن الحكمة أن يتواصل هذا النسق الجميل من التعاون العربي المشرقي المغربي.

• تتطلب العلاقات الجزائرية المغاربية نوعًا من الولوج الجاد والعاقل إلى عصور الدبلوماسية الشعبية والبرلمانات الموحدة، من أجل تجاوز الخلافات السياسية التي أذكتها التأثيرات المتباينة في عهد الحرب الباردة.

• تتطلب العلاقات الجزائرية المصرية قدرًا من الفهم المصري الكفيل بإزالة كثير من الرواسب التي صنعتها حماقات في كرة القدم وفي غير كرة القدم.

(٣١)

وعلى هذا النحو نفسه فإن التفكير في علاقات الجزائر بالمجتمع الغربي ينبغي أن يأخذ في الاعتبار كثيرًا من الآفاق المفتوحة أمام الجزائر.

• لا يمكن للعلاقات الجزائرية الفرنسية أن تصل إلى حالة صحية إلا إذا تعددت روافد الفرانكفونية المتصلة بالجزائر عبر علاقات جزائرية بلجيكية، وجزائرية كندية أيضًا.. بما ينقل أفق العلاقة إلى أفق حضاري يغطي أو يواري النزعة الاستعمارية التي تثير الحساسيات هنا وهناك.

• كان للجزائر دور معروف بعد قيام نظام الخوميني في إيران، وهي التي تولت إنجاز الاتفاق الخاص بتحرير الرهائن الأمريكيين، ولا يزال هذا الدور يتجدد مع كل أزمة تعجز الدبلوماسية الغربية عن مقارباتها.

• أما التوازن بين العلاقات الأمريكية/ الجزائرية، والعلاقات الفرنسية/ الجزائرية فأمر شرحه يطول، لكن الكوادر السياسية الجديدة في الجزائر لا بد لها من أن توضع في إطار يخدم الجزائر أولا وقبل كل شيء.

تم بحمد الله

هذا هو كتابي السادس في أدب الرحلات، وقد كان من المفروض أن يكون موضوعه هو موضوع أول كتبي، بيد أن السياسة فرقتنا وأبعدتنا، ولا تزال ، فجاءت كتابتي عن ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا والهند قبل كتابتي عن السعودية والعراق واليمن والجزائر وتونس ... يعرض هذا الكتاب انطباعات شخصية عن رحلات قصيرة سجلت فيها ما لفت انتباهي، أو أثار تفكيري، أو تغلب على مشاعري ووجداني، ولم يكن من حظي أن أسجل كل ما ينطبق عليه هذا الوصف، وإنما وجدتني قد سارعت إلى تسجيل بعض لقطات هنا وهناك، ووجدتني تركت كل هذه اللقطات في ملفاتي سنة وراء أخرى، ورأيتني، أخيرًا، لا أجد السبب وراء تأجيل نشرها أو إيقاف هذا النشر، ووجدتني في غربتي ومحنتي ومرضي واستيحاشي أجمع ما وجدته منها وأراجع صياغتها، وأقدمها على هذا النحو الذي يراه القارئ. ومع أني رأيت ما توقعت رؤيته في هذه الرحلات القصيرة فإني فوجئت بكثير مما لم أكن أعرف عنه شيئًا، وفوجئت أيضًا بنظم إدارية كثيرة في التعامل مع نشاطات الحياة، ووجدت رغبة عارمة في التقدم، ، ووجدت حاجة ملحة عند العرب لأن يستفيدوا من تجارب أشقائهم في الإنسانية، ومن تجارب أسلافهم، ومن تجارب العالم المحيط بهم.... وقد وفقني الله أن أنقل على هذا الورق بعض ما أحسست به من مشاعر، وبعض ما أدركته من حقائق. وعلى الرغم من سعادتي بكثير من آثار الماضي، فإني سعيد أيضًا بإنجازات الحاضر، ولهذا يرى القارئ وصفًا لكثير من مظاهر هذه الإنجازات بعين المحب الذي يتمنى لوطنه مزيدًا منها.

9 786257 895828
دار الروضة